ابريل ومايو ١٩٣٤
محرم وصفر ١٣٥٣

المعرفة

الجزءان : ٧ و ٨
السنة الثالثة

مجلة — شهرية — جامعة

[مقررة فى وزارة المعارف العمومية]

لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإسلامبولى

المجلد | شعارها : اعرف نفسك بنفسك | السادس

كلمة صريحة

الى حضرات القراء

... وأخيراً ، وبعد عطلة دامت بضعة أشهر ، أراد الله للمعرفة أن تستأنف جهادها من جديد ، وأن تعود إلى ميدانها أكثر قوة ، وأشد دربة ، وأكثر تجربة ، وأقوى على احتمال الشدائد ، وأصمد للنضال والكفاح فى سبيل الفكرة التى قامت للدفاع عنها ، والأخذ بناصرها ؛ تلك الفكرة هى ربط الشرق بالغرب ، وبعث الثقافة العربية ، وإحياء الروح الشرقية ، ونشر المعارف الصحيحة ، وإذاعة العلوم الفلسفية والصوفية - قديمها وحديثها - إلى جانب ما تعنى به من بث أساليب التفكير الحر العامة بجميع نواحيها ؛ سواء أكانت فى الأدب أم التاريخ ، فى الفن أو الاجتماع ، فى العلوم القديمة أو الحديثة ، تجريبية أو نظرية .

و « المعرفة » فى هذا كله تتحرى الدقة فى النشر ، والتمحيص فى الاختيار ، حتى لقد جنت عليها هذه الدقة — أحياناً — مادياً وأدبياً : أما الناحية المادية فلأن صاحبها أبى أن يخاطب عواطف الجماهير دون عقولهم .

وقد كان فى مقدوره ذلك ويجيده، وهو شاب لما يختتم الثلاثين بعد، ثم هو إلى ذلك درس فى معاهد مدنية بحتة، بعضها أجنبى بحت، لكنه نأى عن ذلك بتاتاً، وغاية ما يعمل لنشر المعارف العامة أن يجمع بين الثقافة البعيدة الغور، والثقافة العامة السهلة حتى الحد المعقول الذى يصرف الجمهور إلى بضاعة الخاصة من قادة الفكر وأعلام الرأى، وحتى لا تثير فى نفوسهم ضيقاً يشغل عقولهم عن البحث النافع والتحقيق المجدى الشامل.

ولقد راحت «المعرفة» - فى ظل هذه الفكرة - تقدم إلى قرائها عصارة الأذهان الجبارة وخلاصة العقول المفكرة، فى العلم والأدب والفلسفة والتربية والتاريخ، حتى الأقاصيص فقد استطاعت أن تخضعها للون الخاص الذى اطمأنت إليه.

ولكن «المعرفة» فى الوقت الذى مهدت فيه لأول فوج من نتائج رسالتها الجامعة، كانت تلتمس الجمهور الراقى الذى يُصرف عنها بأساليب شيطانية، فلا تظفر إلا بالعدد اليسير.

وهذا الجمهور نفسه هو العمود الفقرى فى رواج الصحف والمجلات، ومن ثم كان حرماننا منه خسارة فادحة، لو أصاب بعضها غيرنا ما ونى عن التقهقر، وما تريث فى الفرار.

لكنا جاهدنا وجاهدنا، ثم كافحنا وجالدنا، بل صمدنا للجهاد حتى آخر سهم نملكه، وسنجاهد - إن شاء الله - حتى النزع الأخير من حياتنا، ولو أدى الأمر إلى بيع ما نملك من متاع أو عقار، بل ما نملك من قوت، فى سبيل الفكرة التى آمنا ونؤمن بها حتى النهاية.

ولعل من المستحسن أن نصارح القراء - كما عودناهم فى كل ما نعمل - بأنا كنا قد انتهينا من جمع مواد هذا العدد فى ميعاده الماضى الذى كان يجب أن يصدر فيه، وهو شهر نوفمبر ١٩٣٣، ولم يكن باقياً منه إلا طبع بضع ملازم، هى أقل الأعمال زمناً وكلفة، ولكنا فوجئنا باكتشاف سرقة أثرت فينا كل التأثير.

وكأن ما نحن فيه لم يرض المسيئين فراحوا يستغلون ثقتنا بهم، وذهبوا يحصلون قيم الاشتراكات، ويقبضون على موارد المجلة فى غيبتنا دون أن يصلنا منها إلا القليل؛ فكانت الخسارة أفدح والمصيبة أعم وأشمل، على أن يد العدالة لم تلبث أن لحقتهم حتى أنالتهم الجزاء الأوفى، فنهم من فصلت فى أمره فحكمت عليه بالسجن، ومنهم من ينتظر حكمها حتى الآن. وكذلك يحق قول الله تعالى: «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

وفى أثناء ذلك أيضاً كانت «المعرفة» تلتمس الحياة فيدفعها بعض الأحياء إلى الموت، وكانت تلتمس حقوقها لدى الناس، دون أن تجنح إلى التماس عطف أو اقتناص عون؛ ولكن ذلك كان عبثاً.

وكان مما فرغنا من طبعه من مواضيع المجلة، مقال للدكتور زكى مبارك عنوانه «حكاية أبى القاسم البغدادى» وكتب تحت هذا العنوان: [من كتاب تحت الطبع يظهر قريباً بعنوان: «النثر الفنى فى القرن الرابع»]، وقصيدة بعنوان «هل رمت غيرى زوجة؟»، أما كتاب

النثر الفنى فقد ظهر بعد طبع المقال ؛ وكذلك أبلغنا أن القصيدة المذكورة نشرت فى زميلتنا « الرسالة » بعد عطلتنا بقليل . ولما لم يكن فى مقدورنا حذف هذين الموضوعين لارتباط كل منهما بمواضيع أخرى فى ملزمته ، فقد رأينا الاكتفاء هنا بالإشارة إلى ذلك .

وما من شك فى أن جماع هذه المشاكل ، مضافا إليها ماكنا نعانيه من مرض شديد الوطأة، نغالبه ويغالبنا، ونتجاهله فيتنكر لنا ؛ ثم تضافر القضايا الخاصة بنا، ومنها تركة ماكان أغنانا عنها لو كنا نعلم أنا سنلقى كل هذا العنت والضيق والإعسار فى سبيلها ، خصوصاً ولما يفصل فى أمرها رغم مرور ثلاثة أعوام ونصف .

كل ذلك كان له أثره الذى شغل ذهننا ، وسبب ارتباكا فى عملنا، حتى كان بعض المشتركين يشكو تأخر وصول الأعداد إليهم، فى حين يشكو البعض الآخر توانينا فى الرد على كتبهم .

فإلى هؤلاء وأولاء نقدم عذرنا راجين أن يعتقدوا أن آخر شخص يلام على التقصير هو صاحب هذه المجلة الذى كان يعمل دائماً فى جد وكدح، ويكافح أحداثاً صاحب فيها الليل النهار، فى صبر ويقين ، ولكن الظروف القاسية أغلب ، وما تريده المقادير ينفذ رغم كل حساب أو تقدير .

على أنا أفدنا من ذلك درساً مثمراً إن شاء الله ، فخرجنا من هذه المعركة أصلب عوداً ، وأشد إيمانا ويقينا ، وأكثر ثقة بالنفس ، واعتماداً على الله الذى لا رب غيره . ثم أفدنا – إلى ذلك – معرفة الصادق من غيره، والمخلص من سواه، فوضحت لنا الطريق، وتجلت أمامنا السبيل.

ونعود من هذا الاستطراد الطويل، الذى لا بد منه ، إلى ما قدمنا من خسارة أدبية ،كانت نتيجة تدقيقنا فيما ينشر أو بالغ عنايتنا بما نختار من بين ما يردنا من الكتاب ، فإن هذه الدقة، بدلا من أن تكون موضع تشجيع وتقدير ، كانت عند بعض الناس موضع لوم وتثريب : بل كانت مأخذاً شديداً علينا ، فراحوا يعملون ضدنا فى الخفاء كالخفافيش، ويصطادون فى الماء العكر، ولولا صفحة بيضاء نقية، ويد طاهرة ، ولسان عف – ولله الحمد على ما أولاناه – لكنا فى خبر كان: فليعلم هذا من لم يعلم ، وليفهم بالعبارة – وهى هنا صريحة – من لم يفهم بالإشارة .

وليثق من لم يثق أنا هنا لا نحابى زيداً أو عمرا ، ولا كبيراً دون صغير ، أو نفرق بين كاتب وكاتب، أو شاعر وشاعر ، إلا بما يقدم من عمل. وماندعى العصمة أو الكمال – وحسبهما أنهما وقف على الذات الالهية المقدسة – فإذا كنا قد أخطأنا فالخطأ طبيعة من طبائع البشر ، ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟

وبعد فإنا نخلص من هذا إلى تسجيل الشكر لحضرات الذين استفسروا عنا وو الونا برسائلهم، ولحضرات المشتركين الذين صدقوا فى معاملة « المعرفة » ، فلم يضطرونا إلى مطالبتهم أو تذكيرهم بما عليهم .

نظامنا الجديد

وسيلمس القراء مجهودنا العلمى ونظامنا الادارى الجديدين ، فى العدد القادم إن شاء الله ، وهو ما نأخذ له العدة منذ الآن . فها نحن قد نقلنا الإدارة إلى مكان أرحب صدراً وأكثر غرفا ، وأصلح للعمل من سابقه ، واستبدلنا بعمالنا ومستخدمينا السابقين آخرين صادقين نشيطين ، وخصصنا وقتاً للبحث والمراجعة والتحرير والترجمة ، حتى نستطيع القيام بنصيب أوفر مما كنا نقدمه مضطرين.

ولكيلا نستأثر بالعمل وحدنا رأينا أن نشرك معنا قراء « المعرفة » فنستفتيهم فيما يرونه صالحاً وملائماً فى خدمة الثقافة العامة ، فلمن يشاء من حضرات القراء أن يكتب إلينا رأيه فى ذلك ، وفيما يرى وجوب إدخاله من تحسين أو تجديد ، بل فيما يعن له من فكرة أيا كان نوعها ، وسننظر فى هذه المقترحات التى يتفضلون علينا بها ، شاكرين لحضراتهم صادق معونتهم ، وكريم إخلاصهم .

وننتهز هذه الفرصة لنبشر القراء الكرام أيضاً بأنا نعد العدة لإصدار مجلة أسبوعية ثقافية تجديدية تعمل على خدمة الشباب المثقف ، وتكون لسان حال للنهضة الأدبية والعلمية الحديثة .

السنة الجديدة للمجلة

وبما أن هذا الشهر — مايو سنة ١٩٣٤ — كان موعداً لصدور العدد الأول من السنة الجديدة للمجلة ، وهى السنة الرابعة ، لولا ما سبق لنا بيانه ، فقد رأينا تعديل النظام بما يأتى : —

تصدر المجلة هذا العام حتى سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وبهذا يكون لدى حضرات المشتركين ١٢ جزءاً فى ١٠ أعداد ، فنعوض حضراتهم ما فاتهم ، مضافاً إليه جزءان ، إذ المعروف أن المجلة تصدر عشر مرات فى السنة . وأضفنا إلى ذلك — رغم ما فى ذلك من تضحية نتحملها منفردين — تعويض المشتركين عن جميع الأشهر التى احتجبت فيها المجلة ، فلا نحاسبهم عليها .

فالذين يبدأ اشتراكهم من شهر مايو فى عام ١٩٣٣ ينتهى فى سبتمبر سنة ١٩٣٤ بدلا من ابريل سنة ١٩٣٤ ، وتقاس على ذلك بقية المدد الأخرى . ثم نبدأ من أكتوبر ١٩٣٤ عملنا فى السنة الرابعة للمجلة إن شاء الله ، فنستمر حتى يوليو سنة ١٩٣٥ ، وتحتجب المجلة شهرين هما (أغسطس وسبتمبر) من كل عام ، وعلى هذا النمط يسير العمل بإذن الله.

وبعد ، فهذا ما رأينا ضرورة شرحه وتبيانه ، وواجب إيقاف القراء عليه ومعرفته ، لأن صاحب « المعرفة » يعتبرهم جميعاً مساهمين معه فى العمل ، والله على ما نقول شهيد ووكيل ؟

عبد العزيز الاسلامبولى

الاتجاهات الحديثة

للفلسفة الروحية

من أغرب ظواهر هذا العصر ، ما نراه من انصراف علماء أوربا وأمريكا إلى المباحث الروحية بجميع فروعها انصرافاً آخذاً بمجامع قلوبهم، مالكاً عليهم مسارب أحاسيسهم؛ وهذه الظاهرة تدلنا ـ سواء أكانت خالصة للعلم أم غير خالصة ـ على أن ما أصاب العالم من أزمات نفسية واقتصادية كان له شأنه البالغ فى هذا الاتجاه الجديد .

فها نحن أولاء نرى أمثال : فلامريون ، ودورويل ، وتكنسون وغيرهم من فحول العلماء يعملون ليل نهار، وفى تقدم مستمر، على النهج بهذه العلوم نهجاً علمياً حديثاً يقوم على قواعد ثابتة مقررة ، بل لا يكتفون بما يبذلون من جهود فردية، وإنما يؤلفون الجماعات ويعقدون المؤتمرات يتلو بعضها بعضاً فى سبيل تحقيق الغاية التى تهيمن على عقولهم ، وهى البحث عن حقيقة « الانسان الكامل » « أو «السوبرمان Superman»» الذى يقول عنه الأستاذ الكبير (دريش Drisch) الرئيس الفخرى لمؤتمر العلوم النفسية المنعقد فى عاصمة اليونان عام ١٩٣٠ ما نصه :

« إن على المنقطعين لدراسة علوم ما وراء الظاهرات الروحية ، واجبات فى أعناقهم تأديتها لسعادة البشرية ، وأهم هذه الواجبات — فى نظرى — أن يوجهوا قواهم لدراسة وتحقيق نظريتهم، بل يجب على جميع المشتغلين بسائر العلوم ، أن يعنوا بدراسة هذا البحث دراسة تمكنهم من الوقوف على العلاقة الوثيقة لعلومهم بهذا المبحث الجليل ، الذى له أكبر الصلة بسعادة الإنسانية عامة » .

فهذه النظرية التى يقوم علماء أوربا وأمريكا الآن ببحثها وتمحيصها ، ويعنون بتتبعها وتتبع ما شابهها من بحوث ومعارف، تجعلنا نغتبط كل الاغتباط ، لأن فى العناية بها اتجاهاً إلى الشرق مبعث الحكمة والنور ، والتماساً لهدايته ووحيه، وهو مستقرهما منذ الأزل .

على أن هذه الظاهرة إذا سرتنا حقيقة ، فإنها فى الوقت نفسه تثير فى نفوسنا شيئاً من الألم، لتهاوننا ـ ونحن الأصل ـ فيما هو بشأننا أدخل وبصلاتنا أعلق ؛ لكن يعزينا عن ذلك أنا كنا السابقين .

فهذه «السوبرمان» على حد التعبير الانجليزى، والتى يزعم تلاميذ «نيتشه» أنه أول من حققها ونشر استعمالها ، إنما هى مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة ، وبخاصة من نظرية «النيرفانا» .

ومن قبله أيضاً استعملها ابن العربي (المتوفى عام ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعبد الكريم الجيلي (المتوفى عام ٨٢٦ هـ ١٤٢٣م) في كتابه « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» وهو عمدة المتصوفين وإمام الباحثين والسالكين، لأنه لب الحقيقة وناموس الطريقة في اصطلاحاتهم. لكن الجيلي يرى في الإنسان الكامل رأياً نعتقده أصح وأسد من رأي نيتشه وذلك لما يأتي:

يرى نيتشه في طريقة الوصول إلى تحقيق غايته، ضرورة هدم جميع النظم والعادات، والأخلاق والآداب الموجودة، ليبني على أنقاضها نظاماً وقواعد أخرى جديدة يأخذ بسلوكها قسم كبير من ذوي المواهب الخاصة حتى يصلوا إلى درجة السوبرمان، ومن ثم تتاح لهم فرصة أخذ بقية بشر بها وقيادتهم بواسطتها إلى ما يتخيله من سعادة وخير.

وكان نقاد العصر الحديث - وعلى رأسهم برناردشو - رأوا أن الطريق التي رسمها تصورها نيتشه عقيمة غير محققة، لأنها - في نظرهم - كل لا يجزأ، ولأنها وقف على الإنسان المنتظر، ابن الجيل القادم، الذي يخرج من ظهر الجيل الحاضر.

وكذلك يأبى الثيوصوفيون - وعلى رأسهم « آني بيزانت » - أن يتركوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم دون أن يدلوا بدلوهم في الدلاء. فهم يضعون شروطاً لحصول هذا الكمال الإنساني الذي يرونه لازمة من أكبر لوازم الحياة، والذي لا يتحقق بغير تقمص الأرواح بالأفراد.

وعللوا معتقدهم ذلك «بأن الحياة والوجدان والكون ليست إلا مظاهر أو تجليات من مظاهر الله وتجلياته؛ وهو واجب الوجود لذاته لا يدرك الإنسان كنهه، وهو أزلي؛ أما الكون فزائل يبقى ملايين من السنين ثم يزول؛ ومن ثم يعود الخالق إلى الظهور - بعد أن كان كامناً ظاهراً معاً - فيخلق كوناً آخر، وهكذا يتجدد الخلق والزوال؛ ويصدر الكون عنه بواسطة اتحاد الهيولى بالجوهر، وبعبارة أخرى باندماج السلب بالإيجاب، وليس لأنهما منفصلان عن بعضهما البعض؛ بل لأنهما مفترقان افتراق كل من القطبين الإيجابي والسلبي عن بعضهما في المغناطيس، حال أنهما موجودان في كل ذرة من ذراته »....و «...تكون مدة حياة الإنسان في هذه الدنيا متصلة بالطبيعة الأرضية فيه، وذلك بواسطة العقل الذي هو قسمان: قسم عال، وآخر عادي؛ فالعالي أو العلوي يصعد إلى أعلى، والعادي أو السفلي يطلب الأسفل أي يطلب الحياة؛ وذلك لأنه ممتزج بالعواطف ».

و «عند الموت تطلب الروح والنفس والعقل الانفصال عن الطبيعة الدنيا للإنسان، في حين يعود العقل السفلي إلى مصدره - وهو العقل العلوي - يحمل معه ما تعلمه مدة حلول النفس في الجسد؛ وتظل هذه الثلاث - الروح والنفس والعقل - مطمئنة إلى ما أفاده العقل من الخبرة في حال من الوجدان مريحة مستقلة عن الجسم الدنيوي وعن كل ما يتصل به من حدود وأوضاع وعوائق مختلفة. وهذه حال تظل وفقاً لدرجة الارتقاء التي يبلغها الإنسان أثناء مقامه في الأرض، ثم تنتهي برجوع هذا الوجدان إلى الجسم، أي بتقمصه أو حلوله في جسم ثان وهكذا» (١).

1— An article In Theosophism , By Annie Besant

أما الجيلي وابن العربي ، وبعبارة أشمل ، أما الصوفيون فيرون أن الطريق إلى تحقيق الكمال تكون بالتخلص من الشهوات الدنية، وإنكار الذات الإنسانية، والتخلص من الغلف الجسدانية بالحط من شأن الجسد، والعمل على التحقق بآداب خاصة وسلوك خاص، في تزكية النفس وتطهير الباطن. وعندهم أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بمعرفة الحق سبحانه وتعالى ، والعمل على استكناه حقائق الكون، وفهم أسرار الوجود، والزهد في ألوان الحياة . والكمال درجات، تستلزم كل منها مراتب خاصة لبلوغها، وقد شرحها العلامة القشيري في رسالته ، وهي طويلة ، فليرجع إليها من شاء .

والذي يهمنا هنا أن نثبت أن الجيلي أول من تكلم في هذه النظرية بعد ابن عربي، وأول من عرف بوقف نفسه عليها . ويعتبر كتابه « الانسان الكامل» حجة في هذا الموضوع، وإن كان الشراح مجمعين على أن المقصود بالانسان الكامل عند الجيلي هو سيد البشرية على الاطلاق « محمد بن عبدالله »، وهذا حق لا مرية فيه .

والانسان الكامل في نظر أبي يزيد البسطامي (المتوفى عام ٨٥٨هـ -١٤٥٤م) هو «من غمرته صفات الله، وأصبح غير واع لها ، أي دخل في حالة الفناء » ، وهي في النهاية عنده درجة لا تتحقق إلا للأنبياء والأولياء ومن في حكمهم . والكلام في هذه النقطة دقيق جداً، ويحتاج إلى شيء من الإسهاب والشرح كثير ، فلعلنا نوفق للكتابة عنها بعد .

وقبل أن نختتم كلمتنا العجلى نعطي القارىء فكرة « الجيلي » من الأبيات الآتية، وهي من قصيدته العينية النادرة الوجود . وقد عثر عليها المستشرق العظيم، الأستاذ نيكلسون في نسخة بالمتحف البريطاني، فأودعها كتابه[1] «دراسات في التصوف الإسلامي»:

حقائق ذات في مراتب حقه ... تسمى باسم الخلق والحق واسع
وفي فيه من روحي نفخت كفاية ... هل الروح إلا عينه يا منازع
فيا أحدي الذات في عين كثرة ... ويا واحد الأشياء ذاتك شائع
تجليت في الأشياء حين خلقتها ... فها هي ميطت عنك فيها البراقع
قطعت الورى من ذات نفسك قطعة ... ولم تكن موصولا ولا فصل قاطع

والخلاصة : هل يقدر لهذا الصراع القائم الآن بين علماء أوربا وأمريكا أن يستمر ويشتد حتى يهتدوا إلى الحقيقة المطمورة في أرض الشرق وكنوزه ؟ ذلك ما سيكشف لنا القدر عنه، ووقتئذ تخفق راية السلام حقاً ، ويتحقق دستور المحبة والإخاء والمساواة .

1— STUDIES IN ISLAMIC MYSTICISM . P. 145

تعريف أدباء مصر

الى الاقطار العربية

بقلم الأستاذ محمد الهراوى

نشرنا فى العدد الفائت من « المعرفة » ذلك الحديث الذى عقدته رصيفتنا مجلة «العاصفة» ببيروت فى عدد ١٣ اغسطس سنة ١٩٣٣، مع صديقنا الأستاذ الهراوى أثناء رحلته فى الأقطار الشرقية . وكانت قد وجهت فيه شيئاً من العتاب إلى مصر لتجاهلها شعراء الأقطار الشقيقة وأدباءها ، فوعدنا قراءنا الكرام بنشر الخطاب الذى بعث به إليها الأستاذ الهراوى ويرد فيه أثر اللوم والعتاب، ويقوم بتعريف بعض أدبائنا إليهم. ونحن وفاء بهذا الوعد ننشر هذا المقال الذى نشرته رصيفتنا العاصفة الغراء فى عدد ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٣ .

على أنه بدا لصديقنا الهراوى الآن أن يجرى فيه بعض تعديلات يسيرة بالحذف والزيادة، استدراكا لما فاته وهو يكتب مقاله الأول بين عجلة الردويين وفود الزائرين، ومصححا لبعض الترتيب والأغلاط التى وقعت أثناء الطبع هناك .

* * *

قال الأستاذ الهراوى :

أخى صاحب « العاصفة » : أرجو أن تفسحوا لى مجالا صغير الحجم ، ولكنه كبير المعنى ، فى جريدتكم الغراء، لكى أبث شكرى بقلبى وقلمى ولسانى إلى آل لبنان ، على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم ، على مايلقاه المصرى فى بلادكم من أنواع اللطف والحفاوة فى اللقاء والمعاملة . فقد قدرت ذلك قبل سفرى خيالا ، ولكنى وجدته دون الحقيقة بمراحل : وليس الخبر كالعيان. فمنذ قدمت إلى هذه الربوع ، وأنا وأسرتى موضع العناية ابتداءاً من خدمة الفندق « بيروت بلاس » وأصحابه وغيرهم، إلى رجال الصحافة الغراء: يومية وأسبوعية، إلى رجال الأدب والشعر، إلى الأعيان ، إلى رجال الحكومة.

وبعد هذا الشكر القلبى لجميع من ذكرت على هذه الحفاوة بأبناء مصر وأدبائها وشعرائها، أرجو أن تعتبرونى مؤيداً لكم فى التغنى بهذه الحفاوة فى جريدتكم الغراء، ولكنها لا تؤيدكم فى تأثركم من جانب إخوانكم المصريين الذين فهمتم عنهم خطأ أنهم لا يقدرون أدباءكم تقدير أدباء مصر من جانبكم .

فمع استئذانكم أسمحوا لى أن أحتج عليكم بلطف على هذه المؤاخذة التى بنيتموها على ضعف ذاكرتى فى حفظ الأسماء .

فاذنب إخوانى بمصر - وكلهم يترنمون بأشعار رجالكم - إذا قصرت أنا فى الحفظ ؟ على أنى فى الواقع غير مقصر ، ولكن آنستكم تستدرجونى للحكم على شعرائكم وأدبائكم وتورطونى فى الخروج عن مبدئى وعقيدتى فى المفاضلة بين شعراء البلد الواحد ، فضلا عن شعراء الأقطار الشقيقة ، وقد أثبتم شيئاً من رأيى هذا فى حديثكم الذى كتبتموه بذكاء عجيب ، ولباقة قوية وهذا موضع إعجابى بكم . على أنكم يأستاذى الفاضل قد وقعتم فى مثل ورطتى حين سألتكم عن بعض أدبائنا فلم تذكروهم ، وليس هذا بعيب فىّ ولا فيكم ، ولكنه تقصير عام آت من أنه ليس هناك سفارات أدبية بين هذه البلاد العربية ، ولا مجلة مخصصة فى كل قطر لأقلام الأدباء والشعراء منه ومن الأقطار الأخرى ، وذلك هو ما قلته لكم . والآن أتمم حديثى معكم فأبدأ بالتعريف عن بعض أدبائنا وشعرائنا ، وأقول البعض احتياطا لذاكرتى الضعيفة . وقبل هذا التعريف أذكر أن هؤلاء الأدباء الأربعة الذين سألتمونى عنهم وأفدتكم على البديهة بما ذكرتموه حسنة على الجملة ، هؤلاء الأدباء وغيرهم ممن أحدثكم عنهم فى هذه العجالة هم موضع فخر مصر والشرق ولا يقلون مرتبة عن كبار أدباء الغرب لا فى التفكير ولا فى الأسلوب من ناحية الأدب العربى

أذكر لكم من كبار أدباء مصر الآن ما يرد فى عفو الخاطر بلا ترتيب ولا تعقيب :

الأستاذ السيد عبد العزيز البشرى : ذلك الكاتب والعالم العظيم الذى يمثل بكتابته وقلمه روح الأدب المصرى فى ظرفه ولباقته وتوفر النكتة الخفيفة الطريفة ، وله كتاب « المرآة » ، وهو أعجوبة العصر فى تحليل الشخصيات التى كتب عنها ، وله مقالات رشيقة فى الصحف السيارة ، كما له أدب جدى فى المؤلفات العربية المقررة بالمدارس المصرية .

والأستاذ السيد مصطفى عبد الرازق ، الكاتب المفكر الذى يعنى بما يقول بأرق عبارة وأمتن أسلوب وأصحه ، وله غرام بالفلسفة الاسلامية قديمها وحديثها ، وحب بدرس الأدب والشعر ، كما له نبذ هى محل الإكبار والإعجاب ، تبين - على اختصارها فى القول - أبعد معنى يقال .

وشقيقه الأستاذ الفاضل السيد على عبد الرازق الذى يجول قلمه فى نواحى العلم والأدب والاصلاح الدينى والاجتماعى . وهو صريح الرأى يبثه عن عقيدة مدروسة ، وأسلوبه الكتابى مثل يحتذى لمن أراد نموذج الأدب الصحيح الصميم .

والأستاذ السكندرى المدرس بدار العلوم : عالم لغوى ، وأديب كبير ، واسع الاطلاع على الأدب العربى . وتمثل كتابته أسلوب كتاب العرب أمثال الجاحظ وابن خلدون . وهو ركن من أركان النهضة اللغوية الأدبية .

وأخونا الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك الذى أدخل بقلمه الرشيق العالى أسلوب النقد الحديث فى الأدب العربى، وله جولات موفقة فى تحليل المؤلفات والمقالات للأدباء والشعراء والكتاب، ولا يبالى أن يخالف رأيه سواه من المنقودين مادام غرضه إصلاح نظرية النقد بصرف النظر عن حرية الرأى.

والأستاذ السيد عبد الله عفيفى الكاتب والشاعر العظيم، وهو مغرم ببحوثه فى الشعر المصرى المدفون واستخراجه لتعريف الأدباء عن ماهيته وجوهره ولفت النظر إليه، وهى منة يسدى عليها أجل الشكر.

والكاتب المفكر سلامه موسى، وهو من ناحيته ميال إلى الأخذ من الغرب بلا تحفظ. وذلك رأيه وهو محترم له، وإن لم يوافقه عليه الأكثرون، عميق التفكير مختصر الأسلوب.

وهناك كتاب سياسيون وحزبيون لا أدخلهم فى هذا الباب، لأننا فى صدد الأدب البرىء، منهم الأستاذ عبد القادر حمزه، والأستاذ عباس الجمل، والأستاذ عبد الله عنان؛ وغيرهم ممن لو عمدوا إلى الأدب وحده لكانوا أئمة ينسج على منوالهم.

وأذكر لكم أيضاً من رجال الشعر والأدب واللغة الأسماء الآتية:

الأستاذ أحمد الزين وهو من رجال العلم والأدب، موظف فى دار الكتب المصرية، ويقوم بمراجعة أكبر الموسوعات الأدبية، وهو عالم لغوى وشاعر عظيم، وله قصائد فى كل باب، ويمتاز بالحفظ والرواية عن الأقدمين والحديثين، وهو مرهف فى سماع الشعر، حسن التغنى به فى إنشاده.

والأستاذ محمد الأسمر وهو شاعر شاب، وشعره أكبر من عمره، وله طرف تنشر من آن إلى آن فى «الأهرام» كلما بدا له أن ينظم فى فكرة تعرض له أو موضوع يرى مناسبته، وهو مبين اللفظ حسن التفكير طريف الموضوعات.

والأستاذ حسين شفيق المصرى، وهو كاتب وشاعر فحل، يفيض الله على قلمه ماشاء أن يكتب فيه فى الشعر والنثر والمواويل والأزجال والفكاهة والجد والسياسة والنقد، وهو يقوم بتحرير عدد عظيم من الجرائد والمجلات الأسبوعية، وله «مذكرات فضولى» فى مجلة كل شىء وطرف وتحف يذيلها بأبيات قليلة النظم، كبيرة المعنى، تعد من الحكم التى تحفظ والتى تخلد على الزمن.

والأستاذ على الجارم مفتش اللغة العربية فى وزارة المعارف، وهو شاعر من الدرجة الأولى فى حسن الديباجة العربية السليمة وهو أشبه الشعراء بالبحترى، وله قصائد مأثورة خالدة، هى محل إعجاب الكثيرين من شعراء الأقطار العربية.

والأستاذ السيد حسن القاياتى، وهو شاعر جليل سليم الأسلوب حسن الديباجة إلى أقصى حد، رقيق الشعور، واسع الاطلاع على الأدب العربى، ويرجع إليه إخوانه الأدباء والشعراء

فى الذوق والاستفتاء، وله مقطوعات عالية، ويكتب الآن تحت عنوان «العثرات» ناقداً ما يأخذه على الكتاب والشعراء من المآخذ اللغوية والأدبية، وبيته منتدى لأهل الفضل والأدب، وهو من أسرة عريقة بيتها مفتوح لأصحاب الحاجات.

والدكتور أبو شادى وهو طبيب، ويقول الشعر على مذهب خاص، وله جرائد «مملكة النحل» و«الدجاج» و«أبولو»، وله مؤلفات أدبية وروايات شعرية وكتب طبية، وهو نشيط ومفكر ويعمل بجهود عظيم فى إنشاء جمعيات للشعر وأندية للأدب.

والأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة. وهو صاحب أدب ممتع، وقلم فياض، سليم الأسلوب، رقيق التعبير، وكان مدرساً للغة العربية فى الجامعة الأمريكية ثم درس فى فرنسا واختير أستاذاً للجامعة العراقية، وهو وديع الخلق، على الأدبين: أدب النفس وأدب الطرس.

والأستاذ أحمد أمين أستاذ الجامعة المصرية، وهو رئيس لجنة التأليف والترجمة التى تخرج الآن أنفس المؤلفات العصرية العربية، وله كتاب «فجر الاسلام» و«ضحى الاسلام» اللذان هما الآن محل إعجاب رجال العلم والتاريخ، ويكتب مقالات فى الرسالة ذات قيمة فى الفكر، والأدب.

والأستاذ كامل الكيلانى، وهو شاب ذكى ونشيط، له حركة مباركة فى إنشاء مشروع رابطة الأدب العربى، وله مؤلفات قيمة فى الأطفال وجملة مؤلفات أخرى! وأظنه معروفاً عندكم فى لبنان بسياحته الأخيرة التى تطوع فيها لخدمة الحركة الأدبية بماله الخاص.

والأستاذ فريد وجدى وهو كاتب عظيم ألف وحده دائرة معارف القرن العشرين، وله جرائد سيارة ومؤلفات ذات قيمة علمية وتاريخية، وله بحوث رائعة فى الدين والأدب والاجتماع وهو موضع استفتاء الكثيرين فى اللغة والعلم والدين والآداب.

والأستاذ محمد مسعود العالم العظيم والكاتب القدير، والباحث اللغوى والتاريخى، المترجم النابغ، والأديب الواسع الاطلاع، له «تقويم مسعود» منذ كان المحرر الأول فى «المؤيد»، وله كتب من قلمه الفياض، أو من ترجمته الدقيقة، كما له جولات حديثة فى الصحف عن الفلك والآثار وغيرها.

والأستاذ أحمد محرم شاعر كبير عربى الأسلوب، سامى الديباجة، حماسى الشعور، له ماض مجيد فى حركة الأدب والسياسة، ويقيم فى مسقط رأسه دمنهور، وهو فى الصف الأول من شعراء مصر.

والأستاذ أحمد الكاشف، وهو يقول الشعر بفطرته، فياض القلم واضح الديباجة، وهو من شعراء الدرجة الأولى، ثم هو وديع الأخلاق، ويعمل فى زراعة أطيانه «بالقرشية»، وهو بين الفاس والقلم من رجال الصناعتين.

والأستاذ مصطفى صادق الرافعى، وهو عربى صميم ذو ديباجة فياضة بالأساليب الممتازة فى الأدب وعليها طابعه، وله مؤلفات قيمة جدا، منها «إعجاز القرآن» الذى طبع على نفقة جلالة

مولانا الملك فؤاد، وله مؤلفات «السحاب الأحمر» و«حديث القمر» و«المساكين» و«تحت راية القرآن»، وهو ذكى وقاد الذهن غيور على الدين، من بيت علم قديم ؛ وهو وإن كان أصله من الشام، لكنه ولد فى مصر فاحتضنته فهو منها ولها .

والأستاذ أحمد رامى : هو خريج المعلمين العليا وتعلم فن المكتبات فى أوربا ، وله شعر غاية فى الطرافة وحسن الأسلوب والبيان فى اللفظ والمعنى، وأخرج ديوانين من الأدب الحديث، وله أغانى كثيرة للآنسة « أم كلثوم » تتردد بين اللغة العربية والزجل العامى .

والأستاذ أحمد نسيم ، وهو شاعر فحل له ماض مجيد فى الحركة الأدبية والسياسية من عهد الحزب الوطنى المصرى أيام المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد، وهو الآن يقوم فى دار الكتب باصلاح ماتخرج من دواوين الشعراء مثل مهيار ونابغة بنى شيبان وغيرهم .

والأستاذ عبدالباقى إبراهيم خريج دار العلوم ومدرس فى المعلمين، يقول الشعر السليم كلما خطر له خاطر فيه، وهو ينظم لنفسه ، ولا ينشر شعره إلا قليلا .

والأستاذ عبد الجواد رمضان خريج الأزهر الشريف ومدرس اللغة العربية فى مدارس الأوقاف الملكية، ينظم الشعر الجيد جداً ويزهد فى نشره إلا القليل منه، وهو محبوب من إخوانه لصفاء نفسه وجرأته فى الحق وقوته فى اللغة والأدب .

والأستاذ على محمود طه ، وهو شاب يشتغل مهندساً ولكنه مغرم بالشعر ينظمه على أحسن ما يكون، وله وقفات فيه خطت به إلى الأمام بسرعة فهو فى مصر من الشعراء المعدودين .

والأستاذ الماحى رئيس السكرتارية بالأوقاف، شاعر عربى الأسلوب، حسن الديباجة ينظم على طبيعة نفسه، وهو وديع الخلق صافى النفس خادم لإخوانه محبوب منهم.

وسنوالى التعريف بباقى أدباء وكذلك أديبات مصر وكاتباتها وشاعراتها، ومن ثم الأقطار الشقيقة.

الهراوى

رجاء

نرجو حضرات الأدباء والأديبات الذين لم يبعثوا إلينا بصورهم أن يتفضلوا بإرسالها كى يتيسر لنا نشرها فى الأعداد القادمة .

استدراك

نشرنا خطأ بصحيفة ٤٦٠ بمناسبة ديوان المرحوم إسماعيل باشا صبرى، أن القائم بجمعه وطبعه الآن، هو الأستاذ المستشار « محمد بك عزت » ، والصواب أنه هو حضرة الأستاذ حسن بك رفعت المستشار بمحكمة الاستئناف وصهر المرحوم صبرى باشا . وكذلك نشرنا فى الفهرس ضمن المواضيع « آنى بيزانت ومذهب الثيوصوفية الحديثة » ولكننا عدلنا عنه بعد طبع بعض النسخ لضيق المجال، وكتبنا بدلاً عنه فى اللحظة الأخيرة « الاتجاهات الحديثة للفلسفة الروحية »

الأستاذ الأكبر أرنست هيكل

بقلم الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي بك

ذكرتني المقالة ذات هذه العناوين: « وحدة الوجود والاعتقاد بالخالق، خلاف بين هيكل ولودج ، بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى » في الجزء الأول من السنة الثالثة (للمعرفة) — مرثية في الأستاذ الأكبر أرنست هيكل (رحمه الله)، كان الوجد به (لاعليه) قد أملاها عليَّ يوم نعاه الناعي . وفيها إشارات موجزة إلى بعض (مقالاته) .

وقد رأيت أن أقعدها في بهو (المعرفة) في زاوية مع مقال العالم الباحث الشهير الأستاذ (محمد فريد وجدى) والعظيم والملك ، يزاحمها في (بيوت الله) من دونها . وقد قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .

وإن الذي ضاعف تحبيب الأستاذ الأكبر، والإمام الأعظم (أرنست هيكل) إلينا — ولو سماه خصومه (بابا) الملاحدة — أنه كان يبجل في (كتبه) عظيم هذه الدنيا ، ومعنى هذا الكون ، عجيبة الدهر سيدنا وزعيمنا « محمد بن عبد الله » ، واقرأ (الفصل الخامس عشر) من كتابه (أحاجي الكون) أو أسرار الوجود كما أراد الأستاذ (وجدى) أن يسميه بالعربية ، وأقرأ رحلة (الإمام) إلى الهند ، وسواها من آثاره — تعرف تبجيله .

وإنه لو قام ذو همة ، ونقل أو ترجم (ولا تقل عرب) أقوال الأستاذ الأكبر، في هذه (النصرانية) التي يدعو في المشرق إليها المضلون المتسمون (بالمبشرين) « لعنهم الله بكفرهم » « وأضل أعمالهم » — فإنه لو قام ذو الهمة هذي ، بذلك (وللترجمة رجال) لأطرف الناس خير طرفة ، وكان عمله من أكبر ما يتزلف به إلى الله ، وكتابه ، ورسوله ، وإلى العلم .

وخذ الآن ما وعدناك به في مستهل هذا القول :

« حملت إلينا جوائب الأنباء نعي الأستاذ الأكبر (أرنست هيكل) عالم (الكرة الأرضية) في هذا الوقت و « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » فجزعنا ، وارتمضنا من الحزن . ثم هون الوجد أن (الإمام) قد بلغ أكلأ العمر ، وأنه لم تتبدل صورته — وما الموت إلا صورة تتبدل — حتى أضاء في العلم كل طريق حالك ، فرشد المتحير ، واهتدى الضال . فإن الأستاذ لم ينفك منذ سبعين سنة يبث الحقيقة في كل مكان ، ويجهر بها في كل حين ، ويهيب بالناس إليها ، ويحوشهم عليها ، ويصارع خصيمها الباطل ، ويصارع نصراءه ، وجل القوم أو كلهم « إلا من رحم ربك » نصراؤه . ولم يك لتهوله دهماؤهم ، ولم يك ليخشى صولة الصائل ، وسلطان ذى السلطان .

ولما جاء الأقاليم الجرمانية هـذا القول الدرويني ، وقرته علمـاؤها المقت والمهزأة — أكرم الأستاذ مثواه ، وأفشى فضائله وخصائصه فى الجمهور ، وكدح فى تهذيبه وتنقيحه . وقد كان يطلبه وهو غـلام لم ييفع ، ويستهدى أستاذه (جان ملر) فيه . فلو لم يأتلق هـذا الضياء فى الأصقاع الانـكليزية لانبلج فى الأمصار الجرمانية ، وكان الأستاذ صاحب (المقالة) الدروينية . فما (دروين) أو (سبنسر) بأفقه من الأستاذ ولا صارحتـه الطبيعة بأمر كتمته إياه . ولقد استقرى من دقائق العلم مالم يستقرياه ، واكتنه مالم يكتنهاه .

ولولا الأستاذ لم يصر مذهب النشوء إلى الذى صار إليه ، ولم تزل ريب ، ولا دحضت شبهات ، ولا وضحت مشكلات ، ولا كشف حجج (ريمند) المموهة فى معضلات الوجود كاشف . فالأستاذ هو الذى خلص ما التبس ، وأنار ما أظلم ، وعلمنا مالم نـكن نعلم « قالوا : سبحانك! لاعلم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . »

والأستاذ هو الذى قال وبين أن النفس الانسانية هى وليدة النفس الحيوانيـة ، نفس (الحيوانات اللبن) فإنها طلعت من هنالك ولم تبرح تتعـالى حتى انتهت إلى حيث لقيناها . فليست النفس ، وليس صاحبها بفريقين متضادين : هذا خالد ، وذاك بائد ، وإنما هما شىء واحد . وما النفس إلاحادث طبيعى ، وإنه لم تستأثر بها (الأناسية) وتعرى منها (الحيوانات المرتقية) ولـكن قد أخذ كل قسطه ، والأقساط تختلف « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

والأستاذ هو صاحب القول بالوحـدة ، وصاحب نحلتها التى شادها على ثلاث قواعد : (الفضيلة ، والحقيقة ، والجمال) واتخذ الـكون كله أجمع معبدها « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

وهذه (النحلة) وصلة بين العلم والدين ، تطمئن فيها نفوس المتحررين ، فلا يتلهفون على الذى قد ذهب .

والأستاذ هو رب كل مبتدع ، ورب كل قول فى العلم بليغ باهر ، ورأى متين سديد ساحر . وإنا إذا قعدنا نذكر محامده ومناقبه « وهى عديد الحصى » « جاء الضعف ، وأناخ العجز » ، وإن « همة القول لتنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد الوصف يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه » كما قال (الثعالبى) فى (الصاحب) .

هذا ماسطرناه أيام الشباب ، وحين نعى (الأستاذ) ناعيه وتبد[illegible] الصورة .

« ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها [illegible] أحلام »

محمد إسعاف النشاشيبى
[بيت المقدس]

رجل الغـــــــــد

موضوع المحاضرة التى ألقتها المربية الفاضلة الآنسة زينب الحكيم

فى نادى أصدقاء الكتاب المقدس بالفجالة

سادتى . سيداتى :

يذكرنى هـذا الموقف بالوقت الذى أنشأ فيه المرحوم بطرس غالى باشا « الجمعيـة الخيرية القبطية » فى سنة ١٨٨١ ، حيث كان من بين الخطباء ـ يوم افتتاحها ـ الأستاذ الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد النجار ، وعبد الله نديم وغيرهم .

ولو أن الموقف الليلة ليس موقف إنشـاء بناء جديد ، إلا أنه افتتاح عهد جديد للمرأة القبطية المسلمة ، تصافح فيه علنـاً المرأة القبطيـة المسيحية فى دارها هذه لأول مرة منـذ إنشائها ، كما سبق أن صافح الرجل المسـلم أخاه القبطى فى عهد المرحوم بطرس غالى باشا من نحو ٥٤ سنة .

والواقع أيها السادة أنه لا يمكن أى فرد مهما بلغت به قوة الحيلة ، أن ينجح فى التفريق بين مسيحى ومسلم خارج مصر أو داخلها ، لأن أهل مصر رجال حزمة ، ونساء خصيفات « لا صغار » تستهوى نفوسهم الصغائر أو توهن عزائمهم الشدائد . ولقد كان للمرحوم سعد باشا ، والمثلث الرحمات البطريارك السـابق ، الفضل فى القضـاء على ما تسعى إليه عناصر كثيرة للتفريق بين العنصرين المتحدين اللذين يؤلفان الأمة المصرية ولا يزالان متحدين مع ما يبذل من السعايات للتفريق بينهما . والآن أيها السادة والسيدات ، أتحدث إلى حضراتكم عن رجل الغد . ومن هو رجل الغد ؟ هو طفل اليوم وفتى اليوم وشيخ اليوم .

ولست أعنى ذلك الذى لم يتجاوز الثامنة أو التاسعة فحسب ، إنما أعنى الطفل كما يعبر عنه الانجليز ، فإن لفظة الطفل تطلق على الفرد حتى سن العشرين ، ولا إخالنى مبالغة إذا قلت إن تلقيب الانسان بالطفل مدى حياته يكون أقرب إلى حقيقة نصيبه منها ، فليس لفظا : الشيخ والهرم ضدى لفظى الطفل والشاب ، فلقد يكون الفرد فى عامه الخامس أو أدنى ، وعقليته عقلية رجل ، ولا بد قد علمتم حضراتـكم أن أصغر فارس فرنسى عمره خمس سنوات ، وأن رجلا عمره خمس سنوات فى أمريكا ألف كتاباً ، ولقد يكون الشاب الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة أو الذى لم يتم عقده الثالث فى كياسة الرجل المجرب والشيخ المحنك .

ومصطفى كمال الذى نهض بتركيا ـ بعد أن أذن على جنازتها مؤذن الموت أو كاد كما ترون

وتسمعون عن إصلاحه فيها وإنشائه لها من جديد - أصغر المجددين سناً الآن . ونيوتن صاحب نظرية الجاذبية كان أصغر فتى فى العالم أجمع حاز مثل مركزه ! فقد عين أستاذاً للرياضيات فى جامعة كمبردج ولم يتجاوز الثانية والعشرين . وهاهوذا مصطفى كامل الذى عمل لوطنه فى الجزء الأخير من حياته مالم تعمله أجيال بأسرها فى عديد الأعوام، قد مات وعمره ٣٤ سنة فقط. كاأن اسكندر المقدونى الذى فتح الفتوحات وطبقت شهرته الآفاق مات وهو ابن ثلاثين سنة .

هذا وقد يكون رجل الأربعين فى عقلية اليافع، وقد يكون الهرم الذى أكل على الدهر وشرب أبله غراً ولا تساوى عقليته عقلية دجاجة أو سمكة ولا أقول طفلا . إن الطفولة فى شئون الحياة غير طفولة السن وإن تكن هذه مرتبطة بتلك غالباً ؛ حيث أثبت لنا علم النفس قديماً وحديثاً ضرورة ملاءمة نشاط الإنسان وجميع مايحيط به لحالته الخاصة ولسنه المعينة بقدر الإمكان .

أما وقد أخلفت التجاريب ظننا فى ثمار حياتنا ، وفلذات أكبادنا منذ القدم بحيث لم ينبغ من مجموع سكان هذا الكون إلا أفراد تكاد تحصر عداً فى كل علم وفن ، وهؤلاء هم الذين شقوا طريقهم فى الحياة سواء أتهيأت لهم الظروف أم لم تتهيأ، فقد وصلت من هذا الحكم وهذه الحقيقة إلى أنه لابد فى نظامنا العالمى العملى والمعنوى نقص مبين يرجع إلى ضعف سبل تطورنا؛ وبما أن المجال مجال تحليل علمى عملى نريد من ورائه الوصول إلى حل يرضينا ونتيجة فعالة نطمئن إليها لرجل الغد ، أقول:

إن هذا الجيل يسمى جيل الطفل ، وإنه اسم موفق لشدة اليقظة التى أصبحت تحوط الطفل متدرجة ببطء من أيام أفلاطون وبلوتارك اليونانى الذى عاش فى القرن الأول للميلاد. وتقدمت تلك الحركة بشكل أسرع من أواسط القرن الثامن عشر حتى بلغت الذروة اليوم .

وفى يقينى ، أن هذه العناية الفائقة واليقظة الصادقة نحو الطفل لم تكن إلا وليدة انتباه العقول الفذة المدبرة التى أدت رسالتها إلى العالم على أكمل وجه ، وإذا كان هؤلاء قد نفذوا إلى عالم الجهاد والكفاح وسط العواصف القاصفة والأفكار الهائجة والمتشبعة جهلا وغلظة دون أن تساعد أو تعضد فى إبان كفاحها ، فلا بد أنها لاقت من الجهد أشقه ، وقاست من الوهن آلمه، ومن الشدة أمضها. ومع ذلك ظهرت لنا من بينهم عبقريات تبقى مدى الدهر، وأمثال هؤلاء كثيرون قدماء ومحدثون.

فها هوذا إدسون النور إله السحر، وتاريخ حياته حافل بالصعاب من ألفه إلى يائه ، ولكن هل هذه الصعاب أوقفت نبوغه وعبقريته دون أن يبلغ جل أغراضه ؟ وهل منعته ظروف الحياة القاسية من أن يخفف من قسوتها، وأن يشمل العالم أجمع بنور اختراعاته التى تنيف على الألف؟

ثم هنالك قاسم أمين الذى كانت روحه روح أديب ؛ روح حساسة ونفس جياشة ثائرة

تنعزل للبحث والتنقيب ، فتستطلع ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال ، بل كانت عيناه الواسعتان كما يقول هيكل: «تريدان أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاماً أكثر مما تؤدى إليها المباحث الجافة منطقاً وجدلا . فكان يحرص على متاعه منها ، ويدعو غيره لهذا المتاع، وذلك لايؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم . فقاسم أدى رسالته بالتعبير عن شعوره بوصف مافى هذه الحياة من مختلف ألوان الجمال» ، إلى أن قال : « وحياة قاسم كانت كلها متجهة إلى هذه الدعوة، وكانت متجهة إليها بقوة آخذة بنفسه، متغلبة عليه، حالة منه محل الإيمان بها إيماناً صادقاً».

إنك لتدهش أن تعلم أن قاسماً كان مع كل هذا قاضياً فمستشاراً إبان حياته ، وقد قصدت أن أنقل لحضراتكم حرفياً هذه الفقرات عن حياة قاسم بقلم هيكل ! لأنى أعتبرها جمعت فأوعت، وتسجل نفسية كاتب نزيه، وتظهر سمواً خلقياً لذلك الكاتب! وما أجمل مايمتدح به رجل رجلا ، وليس أعظم من أن يبكى رجل رجلا ، ولأن تمتدح امرأة امرأة .

وبودى أيضاً أن أرى حضراتكم نموذجاً للأسلوب الكتابى الراقى والتفكير النثرى المنظم ، فلو أخذت نموذجاً لكاتب من طراز آخر واتسعت صدوركم لسماع شىء من كتابته النثرية ، لما ترددت فى اختيار الدكتور طه حسين، إذ هو فى نظرى شخصية عبقرية مزدوجة كقاسم أمين ، فكما كانت لقاسم قدرة تعدد العبقرية كالدكتور طه ، فإن الأخير يمتاز فى إيجاد فروع للعبقرية الواحدة ؛(فهو عبقرى إذا كتب فى الأدب، وعبقرى إذا كتب فى النقد، وعبقرى العباقرة إذا كتب فى السياسة) . وهو مع هذا ليس أديباً أريباً فحسب، بل هو فوق ذلك مرب ماهر، واجتماعى حصيف ، فتفضلوا بسماع حديثه لابنته فى كتابه « الأيام » ص ١٢٧ ، والقارىء لحديثه إلى ابنته يرى عظم الفرق بين طفولته وطفولتها ، وكيف أنه تحمل مايستطاع وما لا يستطاع للتغلب على شئون الحياة وتنشئة ابنته هذه وأخيها على أحسن ما يمكن؛ كذلك نلحظ أنه فى حديثه يولى ابنته ثقة على صغرها مما يربى شخصيتها ويشجعها على الاعتماد على النفس ؛ وسلوكه هذا مع أطفاله قدوة طيبة لمن سيكون رجل الغد .

ويهمنى أن آخذ «شوقى» كمثل أعلى للشاعرية المصرية، فقد كان عبقرياً متفنناً؛ أما شعره على على حدة فلست فى حاجة إلى ذكر شىء منه لحضراتكم فكلكم قارىء وكلكم مطلع . وإن ما تخيرته - لأن أسمعه حضراتكم - قطعة شعرية من قصة كليوباترا لأظهر شيئاً من عبقريته فى هذه الناحية، ناحية القصص التمثيلى الشعرى ، فلقد صور نفسية المرأة القوية فى أشد مواقفها بشكل يشهد له بالمقدرة الفائقة . وليس يعنينا كثيراً موضوع أزمة كليو باترا النفسية ومحاولتها التخلص منها بالطريقة التى حصلت، وإنما نريد الوقوف على قدرة «شوقى» فى تصوير

نفسية امرأة. وهى من القطعة الشعرية التى مطلعها «هلمى الآن منقذتى هلمى»، والتى منها:

سطت روما على ملكى ولصت جواهر أسرتى وحلى آلى

فرمت الموت لم أجبن ولكن لعل جلاله يحمى جلالى

ومنها: وقد علم البرية أن تاجى عمته الشمس والأسر العوالى

ومنها: يطالبنى به وطن عزيز وآباء ودأبهم غوالى

ومنها: أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وبعد، أما آن لنا الأوان وحان لنا الوقت، أن نقوم قومة الرجل الواحد، ونتشبه بتلك المرأة العظيمة فنأبى الضيم على أنفسنا، ونتشبث بحقوقنا كاملة، ونرد جائحة الاستعمار عن عزتنا القومية فنستميت فى الدفاع عن وطننا وحقوقنا إلى آخر رمق لنا فى الحياة؟

ثم لننتقل إلى عبقرى من طراز آخر، ذلك هو شلى الشاعر الانجليزى.

ويعجبنى منه وقد نشأ فى أسرة جميلة وورثه جده غنى طائلا، أنه زهد فى المال ورغب عن الدعة والراحة، وترك بيت أبيه وأهله جميعاً، لا على أن يستغل ما أوتى من موهبة الشعر وما ورث من مال فينسى ملاكه ولا يستمع لوحيه، ويذكر شيطانه فيتبع خطواته كما فعل من العرب عمر ابن أبى ربيعة ومن الانجليز بيرون الشاعر، وإنما سما بنفسه الزكية وإحساسه الراقى إلى جمال الطبيعة وفسيح الخيال، فترك للناس من بعده أثراً نافعاً يبقى على كر الأيام ومر الليالى.

إلى هنا قد يسألنى البعض فيقول: وما الذى كافأت به الحياة أمثال من ذكرت؟ فأقول: يكفى أنهم انتفعوا بتشغيل قواهم ومواهبهم فى حياتهم إذا لم يكونوا قد انتفعوا أو استمتعوا بشىء آخر. وحقيقة ليس منا من ينكر أو يستهين بما نال عظماء الرجال وعظيمات النساء فى مختلف العصور من أذى ونضال شاق وتضحيات جسام، إلا أن كل هذا معفو عنه، ومشاد بفضله؛ فلولا تضحيات عظماء النفوس، العظماء الهمة، العظماء الجد والإقدام والمثابرة! لما وصل العقل البشرى إلى ما نراه فيه من رقى وتطور.

ولو حاولت أن أستمر فى سرد أسماء بعض العظماء والعظيمات ولو اسماً واحداً لكل فريق ممن امتازوا بعبقريات خارقة، لطال بى المقال؛ فهناك مدام كورى، وبوديشيا زعيمة المدافعات عن الوطن، ومنتسورى صديقة الطفل، ورابعة العدوية زعيمة المتصوفات، وأم المحسنين زعيمة الرحيمات، وهناك نيتشه، وتسلا، وسعد، ونابليون، ومحمد على، ولودج، وغاندى، وغير هؤلاء كثيرون جداً. والذى أريد أن أقوله الآن، هو أن هؤلاء على كثرتهم قليلون بالنسبة إلى عدد الانسان فى العصور السابقة وفى العصر الحاضر.

فكيف نصل برجال الغد إلى أن يكونوا عباقرة مثل هؤلاء، إن لم يكن فى جميع نواحى الحياة ففى أكبر جزء من المستطاع الممكن؟! إن زماننا غير زمان من سلفوا، وقد جاء فى

الأثر الشرقى وقد سبق الغربى ما نصه : « لا تقسروا أولادكم على آدابكم ، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . والحقيقة أننا نريد ثماراً يانعة ننتفع بها تفعاطيبا ، ونصل بواسطتها إلى تأسيس مجتمع راق، تكون القيادة فيه للعقل (أى قوى النفس جميعاً)لاللغريزةالأولية، أو أن يستمر الخلف مرتكنا على السلف ، والسلف ضاغطاً على الخلف ، مما يفقدهم ميزاتهم الطبيعية من تفكير ونشاط ، فيتراجع الجميع القهقرى بدل السير قدماً إلى مراقى الإنسانية .

وإن مايتطلبه أطفالنا اليوم غير ما كان متبعاً بالأمس ، لذلك إذا أردنا أن نسهل على طفل اليوم الوصول إلى هذه الغاية التى نطمح إليها، فلن يكون ذلك بغير تيسير السبل لظهور نزعاته ورغباته وميوله الدفينة إلى حيز العمل المنتج علماً وعملاً ، مع ملاحظة اتزان أجهزته الجسمية خصوصاً جهازه العصبى ، وهذا ما يجب أن يأخذ جزءاً كبيراً من عنايتنا ونشاطنا ، فإننا لو اهتممنا بفعل ذلك ، لرأينا العجب العجاب من ناشئة اليوم ، خصوصاً أن العصر عصر عمل منتج ، وأصبحت الطريق معبدة واضحة ، ويجد الطفل من الوقت ما يساعده على التفكير والابتكار ، لاسيما وأنه من مزايا الكائن الحى النشاط الذاتى العقلى ، وليس ذلك مقصوراً على أبناء أمة واحدة وإنما يشترك فيه كل كائن حى فى هذا الوجود، لذلك كان لزاماً أن نطرق باب الرقى البشرى العالمى من هذه الطريق، وقد اتفق فى ذلك غالبية المربين قديماًوحديثاً، فقال لوك الانجليزى (١٦٣٢) فى هذا المعنى: «إن المعارف الحقيقية لاتنال إلا بتمرين العقل. ولكل عقل مميزات خاصة، لذا وجب أن تكون التربية مؤسسة على ما لكل طفل من مميزات، وعلى حاجاته الاجتماعية أيضاً ، وأن نهتم بما يكون عليه فى حياته العملية».

وقال روسو(١٧١٢): «ليس معنى الحياة مجرد التنفس، بل معناها العمل باستعمال أعضائنا وحواسنا وقوانا العقلية . وباستعمال كل ما بقى من جسمنا حتى نحس بوجودنا ، فالغرض من الحياة ومن التربية أن نعيش عيشة تامة ».

وقال بتسالتسى (١٧٤٦) : « يجب ألا يكون التعليم غرضاً فى ذاته، بل واسطة فى التربية العقلية وتقوية المواهب جميعاً عملياً » وقال فروبل أبو الطفل وحاميه: «يجب أن تكون طرق التربية مرشدة للطفل دون ظهور وتابعة لقيادته بحكمة لكى يسير وفق طبيعته لاضدها » .

وإن من أهم قوانينه فى التربية قانون النشاط الذاتى . وإنا نبرهن على صحة نظريته هذه ، بأن تمرين أى عضو فى عمل ما ينتج تقوية ذلك العضو فيه ، وينميه نمواً متناسباًمع تمرينه . وكذلك الطفل إذا استعمل مجهوده الذاتى فى فرع خاص من الرياضات العلمية أو العملية ، فإنه يحصل على النمو المطابق لهذا المجهود ، وبالعكس إذا أساء استعماله فإنه يعطى نموه تعطيلا متناسباً مع إهمال هذه التمرينات، ومن ذلك ترون أن العقل بقوته الأصلية ونشاطه الخاص به يؤسس لنفسه عالمه الإدراكى . فالعمل والنشاط والحركة تحقق للشخص عالمه الخاص ، ولاسيما

أن النشاط الذاتى الصادر عن البواعث النفسية الخاصة والناتج عن الرغبة والارتياح ، والقائم على توفر القوة للفرد يمكنه من الحصول على الفائدة المقصودة من التربية الصحيحة .

هذا وإن النشاط الذاتى - أو ما أسميه أنا السعى الصادر عن الطفل بطبيعته - يمهد للنفس والعقل فرصاً عظيمة للتهذيب بتنسيق وربط بنات أفكاره بما يحيط به . وبذلك يفهم الطفل أن الغرض من وجوده كوحدة مستكملة فى ذاتها دعامة أولية تؤسس عليها الانسانية .

وبعد فما لا يختلف فيه اثنان أن حرمان الفرد ومن ثم الجماعة ، من ميزة النشاط العقلى والتجارب العملية، جريمة خطرة على التقدم القومى والعدالة القومية والنظم الطبيعية.

البلد المصرى بلد الثورات السريعة الهبوب السريعة السكون ؛ وذلك شأن البلاد المغلوبة على أمرها، ومصر تفوق غيرها فى ضياع نشاطها لسرعة تفرقها وتعدد أحزابها، ولذلك فاستفادتنا من ثوراتنا قليلة نسبياً، وإذا ضربنا صفحاً عن الثورات السياسة، وفكرنا فى شىء أشد مساساً بموضوع بحثنا هذا، وأخذنا ثورة تعديل المناهج الدراسية منذ عام ١٩٢٤ مثلا، ومثلا حيوياً يهم كل فرد فينا ، وجدنا أننا لا نسير على نظام معقول صريح للوصول إلى أغراضنا فى مختلف الشئون بله شئون التربية والتعليم، تلك المسألة الهامة العويصة التى يتوقف عليها رقى العالم أجمع.

لقد اتفق فى هذا البلد على وضع نحو العشرين إلى الثلاثين مادة لتدرس فى المناهج ، وكلف الطفل ذلك من طور الروضة إلى الدراسة العالية فالتخصص ، هذا عدا الاجتماعيات التي تجدر العناية بحركاتها وتشجيع النشء بشتى الوسائل على الاندماج فى سلكها، بدل اندفاعه إلى تيار المجتمع الفاسد ، فيغزو المقاهى وأماكن اللهو كالمسخر لإخلاء جيبه وإفلاس مالية والديه ، وتخريب أخلاقه وإفساد مستقبله .

ولكن، لنقف هنا قليلا ونسائل أنفسنا : هل أفادتنا ثورة تعديل المناهج ؟ الجواب مع الأسف سلباً ، لأننا لا نزال نرى الطلاب متأففين والآباء غاضبين والمدرسين ناقمين ، والحقيقة أن المناهج بهذا التعديل لم تخرج لنا رجالا كنا نطمح فى إيجادهم ، والأسوأ من ذلك أن من شذ بذكائه ونشاطه واستعداده أهمل شأنه ، واستولى عليه اليأس من دوام عدم تشجيعه .

ومن هذا نرى النفوس ثائرة - ولقد يكون لها الحق فى بعض النواحي - غير أنى أرى أن سبب هذا كله يرجع إلى أساس هام لم ينتبه إليه أحد من القائمين بالاصلاح فى مصر ؛ ذلك هو إصلاح شأن الطفل فى السنوات التى تبدأ من يوم حمله إلى أن يلتحق بالمدرسة (الروضة) فى سن الخامسة ، متغاضين فى ذلك عن أهمية علاقة الآباء بالأبناء التى لا يعرف الأسر عنها إلا النزر اليسير ، وثانياً يشكو الجميع من مواضع لا يجب أن تكون موضع شكاية، بل يجب أن تكون موضع تقدير وعناية ، مثال ذلك أنهم يشكون من كثرة مواد الدراسة مع أن ذلك فيه إعلاء لشأن الطالب، حيث إنه عامل قوى لتوسيع مداركه وإنماء لشخصيته ، وإن ذلك بمثابة

نواة أولى تمكنه فى المستقبل من الصعود عليها إلى أقوم درجات البحث والتنقيب ، ومن هذا نرى أن الشكاية كان يجب أن تكون من سوء طرق التعليم وتواكل أو جهل القائمين به ، وسوء ترتيب الدراسات المتنوعة فى السنة الواحدة وفى مرحلة التحصيل كلها ، وجعل دراسة جميع المواد إلزامية لكل طالب ، وغير ذلك .

أما السبب الأول وهو الجدير بالعناية الفائقة فى نظرى ، وهو السبب الذى من أجله ضربت الأمثال بالعباقرة سالفى الذكر ، على أن أهيب برجل الغد أن يقتدى بهم ، وذلك لكى يكون خير قدوة لأطفاله حينما يكون أبا إن كان رجلا ، وأما إن كانت امرأة خصوصاً وأن العلم والتجارب أكدت أن هناك علاقات ثابتة بين الوالدين وأبنائهم ، فهناك :

١ — علاقة طبيعية ، وتلك هى رابطة الزواج التى ينشأ بواسطتها الطفل ، ومما لاريب فيه أن هناك ميزات طبيعية ثابتة توضح علاقة الطفل برجل وامرأة هما أمه وأبوه ؛ فاذا كانا سليمى الجسم والعقل عبقريى المواهب ، ظهر ذلك فى نتاجها الذى يجب أن يكون محدود العدد حتى يستطيعا تنشئته بسهولة ونجاح .

٢ — ثم هناك الرابطة الانفعالية بين الوالدين والابناء ، وهذه الصلة مميزة للرابطة الطبيعية ، وكثيراً ما نسمع الوالدين يرددان : ابنى ! ابنتى ! ولدى ! مع قصد التشديد على ياء المتكلم ، وأقل ما فى هذا التعبير الانفعالى من مظاهر ، هو مظهر الحب الأبوى ؛ وهذا يعنى به دائما ما يكنه الوالدان لأولادهما من المحبة ، ولا يشترط أن يعنى به ما يكنه الأولاد لآبائهم من محبة ، (لأنهم يكتسبون ذلك كلما تقدمت بهم الأيام) .

٣ — ثم هناك الرابطة العقلية ، فكلما نما الطفل وتقدمت به سنو عمره ، نمت عنده رابطة عقلية خاصة ، فهو يحفظ أو يتعلم من والديه إذ يتحدث إليهما عن الأشياء ؛ ومما لاشك فيه أن الرابطة العقلية هذه لها ارتباط وثيق بالرابطة الانفعالية سالفة الذكر .

٤ — وأخيراً هناك الرابطة الاجتماعية بين الوالدين والأبناء ، فنلحظ أن الوالد الفخور بابنه والمسرور منه يعرضه لتجارب مختلفة وأشياء ممتازة لا ينالها باقى الأطفال من نفس الأسرة ، لأن حالهم لاتدعو إلى الفخر ، وليسوا حائزين الرضاء التام من والديهم ؛ والحكم العادل فى أمثال هذه الأحوال يتوقف على مقدار ثقافة الوالدين ومقدار دراستهما لابنائهم ، وهنا يظهر فرق كبير بين الطفل الذى يأخذه والده هنا وهناء ، وبين الطفل الذى يظل قعيدة البيت حتى إذا ما خرج إلى المجتمع كان أبله قليل التجربة ، غريباً فى محيطه .

لذلك ، فنحن فى حاجة ماسة إلى مساعدة فعلية للآباء والأمهات لكى نعاونهم على النهوض بأسرهم من جهة تربية النشء والتعاون على الحياة المشتركة ؛ ولقد قدمت أن لفظة الطفل

يصح أن تطلق على الانسان مدى حياته لكى يستطيع الدرس والتنقيب طول هذه الحياة ، إذ لا خير فى عقل يقف تفكيره، وحياة تنتهى غايتها.

إذن: نحن فى حاجة إلى مدارس خاصة بالآباء تشبهاً بما اتبعته الأمم الراقية للأخذ بناصر الإنسانية ، فمنذ أوائل القرن العشرين تنبه علماء الاجتماع والتربية إلى الدور الهام الذى يمثله الآباء فى تربية رجال الغد لما بين هؤلاء وأولاء من الروابط والعلاقات، وكيف وجد أن هذه الروابط بين الآباء والأبناء غير كفيلة بإعداد النشء إعداداً مرضياً ، لذلك يجب أن نعوض الآباء ما فاتهم فى أوقات تحصيلهم ، فنزودهم فى تلك المدارس بكثير من العلوم المستحدثة ؛ كعلم النفس التجريبى والاجتماع والمنطق والفنون المتنوعة لما لها من أهمية فى تربية وتكوين عقلية الناشىء ، كما نساعدهم على دراسة الطفل بنوع خاص فى أشهر أطوار حياته خصوصاً طورى الطفولة فالمراهقة ، إتقاء ما عساه ينتج من مشاكل خلقية واجتماعية فى المستقبل .

وعليه يجب أن نسرع فى إنشاء اتحادات وجمعيات للآباء بحيث تضم الأمهات والآباء من كل الطبقات لنباحثهم ونرشدهم فى أمور تربية رجال الغد ، كما عملت انجلترا وأمريكا عام ١٨٧٧ للأولى و ١٨٩٧ للثانية . وبالضرورة سينشأ عن هذا معاونة المدارس على مهمتها الشاقة ، وسنقدر العناية بالأطفال المهمل والمتشردين ، ونعنى بموضوع رعاية الطفل بشكل أعم إن لم يكن بتلك المدارس الخاصة فليكن بكثرة المحاضرات والدراسات والتجارب العملية .

فإن حالنا الراهنة فى مصر حال يشفق على البلد منها ويرثى لأخلاقها ، وإنه طالما لا نأخذ بيد بعضنا بعضاً ، ولا نشد أزر بعضنا بعضاً، وطالما لا يوجد من يهيئة الله لأن يأخذ بناصرنا ويهدينا الصراط المستقيم ويوجهنا الوجهة الصالحة ، فلن نستطيع أن نطمع فى عيشة راضية وجنة عالية على هذه الأرض .

والواجب علينا جميعاً أن نتمثل بقول سالم بن عبد الله: « اجعل الناس أباً وأخاً وابناً ، فبر أباك ، واحفظ أخاك، وارحم ابنك » . وعلينا أن نعمل كثيراً ولا ننتظر أجراً كبيراً .

ولا يفوتنى أن أقول: إن على المرأة ــ وأنا واحدة من جنسها ــ أن تشمر عن ساعد الجد، وأن تساهم بجزء وافر من نشاطها وذكائها ومثابرتها لأن تؤدى رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ بيد الرجل فى تسامح مهما كلفها ذلك من مشقة .

وليعلم الرجل المصرى أن رسالة المرأة المصرية لا تنفذ إليه إلا إذا استعد لاستقبالها . فإذا كان يرجى للمرأة المصرية الجديدة أن تضارع أختها التالدة أو أن تتشبه بمثيلاتها من نساء الغرب اللاتى غيرن صفحة التاريخ بما أوحين إلى النوابغ والعباقرة ، فلا بد من إعداد الرجل المصرى لتلقى رسالتها بقبول حسن، وأن يحلها المكان اللائق بها حتى تنهض بعصرنا نهضة سمو توصلنا إلى الكمال التام .

في الشعر القصصي

على طريق بيروت

للأستاذ أحمد الصافي

ويوم عدت من سفر بعيد … وقد غطت أديم الأفق سحبُ
إخال البرق بين السحب ناراً … تشب بغابة حيناً وتخبو
وكنا في أتومبيل سريع … تساوى عنده بُعد وقرب
كفيلٍ في الفلاة له عيون … تشع كأنها في الليل شهب
كأن الدرب سوداء الأفاعي … سرت ما بين آكام تدب
تلوّى في السرى وتشيل صدراً … لها فاصدرها خفض ونصب
نروم لرأسها النائي وصولاً … وليس يعوقنا في السير صعب
عشقنا رأسها النائي ومن ذا … لرأس الحية السوداء يصبو؟
ركبنا بطن فيل فوق أفعى … وذاك الفيل يزأر إذ يخب!
فلاح على الطريق لنا مشاة … يؤلف بينهم نسب وحب
أب شيخ، وطفل دون سبع، … وأم زان منها الفود شيب
ورابعهم-كأهل الكهف-كلب … يلوح كأنه في الشكل ذئب
يسير بجنبهم يحمي حماهم … وفي عينيه نيران تشب
فحدق بالأتومبيل المولى … إلى أهاليه وجهاً لا يحب
فظن بأنه وحش غريب … توجه منه نحو الأهل خطب
فثار بوجه ذاك الوحش يعوي … وهب تخلت عاصفة تهب
يروم له بشدقيه افتراساً … ويغدو بالنباح له يسب
فرام السائق القاسي انتقاماً … وما ضاقت به في السير درب

فوجه سيره للكلب ظاماً ... وأورده الحمام وقال كلب ! !

فظل الكلب يرفس رفس موت، ... عظام حطمت وانشق قلب

تفجع أهله فبكوا عليه ... بدمع ملؤه ألم وكرب

بكوه وكيف لا يبكون خلاً ... وفياً قد قضى عنهم يذب

وجاء الطفل يبغي ضم كلب ... له معه هوى ماض ولعب

لقد نشأا معاً والكلب جرو ... وليس عليه سن الطفل يربو

يداعبه ويؤنسه بقفز ... وذاك الطفل فوق الارض يحبو

رأى دمه فصب عليه دمعاً ... وصاح وصوته نوح وندب

أيا كلبي العزيز! فدتك نفسي ... ألا احيَ وكُلْ، فذا أكل وشرب

وظل يروم مسح الترب عنه ... وللدم منه فوق الأرض سكب

يحاول حمله حيناً فيعيا ... ويبغي أن يسير به فيكبو

ويلثمه لينعشه بلثم ... كأن اللثم للمجروح طب

تلقى اللثم عن أبويه طباً ... له، إن نابه جرح وضرب

فراح يزيد ذاك الكلب لثماً ... وبالدم قد تلطخ منه ثوب

وظلت أمه تبكي حناناً ... لدمع الطفل أو لدم يصب

يروم أبوه سحب الكلب منه ... ليدفنه فلم يمكنه سحب

تمسك طفله بالكلب حباً، ... وهل يرضى بدفن الإلف صب؟

تركناهم وفي قلبي شجون ... ولم يأبه معي للأمر صحب

فثرت على الأنام لقتل كلب ... وصرت كأني للكل حرب

وقلت: بأي ذنب أوردوه ... رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟

بكيت وللسماء رفعت رأسي ... وقلت: أما لهذا الكلب رب؟!

[دمشق] أحمد الصافي

كلام عن

الشباب والعروبة فى القاهرة

[كتبت فى الأصل لجريدة « الجامعة الاسلامية » بيافا ، ولم يتيسر إرسالها فى الميعاد المحدود ، فرأينا إثباتها هنا بنصها وفصها]

تفضلت « الجامعة الاسلامية » فرغبت إلى أن أساهم معها فى عددها الذى شاءت أن تتوجه باسم « الشباب » ، ومن المحقق أن « الشباب » يستطيعون فى هذه المرحلة من مراحل العصر الحديث أن يغتبطوا كثيراً ، لأنهم لم يعودوا خافتى الصوت إلى ذلك الحد الذى لا يفتح آذان الشيوخ ، ولأنهم قد مهدوا للحياة — على ضروبها — أسباباً من التفوق من شأنها أن تحمل على المفاخرة والمباهاة .

وعندى أن الشباب — فى الوقت الحاضر — قلما يعنى بإشباع عاطفة الغرور فى نفسه بمقدار ما يعنى بتوجيه الجيل الحديث توجيهاً متزناً موفقاً ، ثم فيه ما فيه من مجانبة لهذه العثرات الثقيلة التى تحطمت على صخورها أحلام الأجيال الغابرة ، وفيه ما فيه من تحقيق لألوان من النفع الحافل بكل ما هو خير شامل .

والذين يدرسون اليوم أطماع « الشباب » دراسة علم وتحقيق ، يخيل إليهم أن الجانب الروحى هو الذى يسيطر على هذه الأطماع سيطرة كبرى ، وهذا من خير ما نسوقه — معشر الشباب المشتغلين بالبحوث العلمية الروحية الفلسفية — دليلا وأى دليل على اندحار المادية ، رغم ما يبدو فى مظاهرها الحالية من طلاء ورواء ، ويلوح لعين الأعشى بريقه فيظنه نوراً حتى إذا جاءه لم يجده إلا برقاً خلاباً ، ونسوقه دليلا آخر على أن التنبه الروحى قد أخذ يستقر بعد إذ تقلقل من مستقره قروناً عديدة ، فأخذ ينتعش ويتنسم نسيم الحياة من جديد ، بفضل العلوم الحديثة التى نعتقد أنها من أكبر العوامل على تثبيت المعتقدات الروحية ، لا على هدمها كما يظن الكثيرون . والواقع أن الشباب اليوم لا تنطوى نفوسهم على الأمانى المعسولة والآمال الكاذبة الداعية إلى السيادة المادية وما فيها من ضروب الإرهاق والاستعمار ، وإنما تسيطر عليهم أحلام ناعمة بيضاء ، وأمان سامية ، يريدون بها أن يحققوا من دستور السلام والإخاء والمساواة أكبر جانب ، حتى لا تطغى عليه تلك العقائد التى أرغمت العالم على أن يعيش فى تناحر وتدابر ، بل فى جحيم الخصام وسعير الحروب .

هذه النزعات الجديدة بما فيها من جلال ، وما يتخللها من روعة ، وما يغمرها من خير ، هى الت

ى

أتاحت للشباب تلك المنزلة السامية فى النفوس ، وما أحسب إلا أنها هى التى هيأت للزميلة الكبيرة الممتازة « الجامعة الاسلامية » أن تصدر هذا العدد الممتاز لتصور فيه جهود الشباب من جانب ، ثم لترجى إليهم من نصائح الكتاب ما يستطيعون به أن يتجهوا إلى منتهى مآربهم فى خطوات سديدة وسعى رشيد .

وأعود إلى حظى من المساهمة فى عدد « الجامعة الاسلامية » الممتاز ، فأقف بالقراء المنتشرين فى جوانب الشرق العربى كله موقفاً لا أدرى ، أهو موقف الحيرة ، أم هو موقف التردد ، أم هو موقف بين هذين ؟ فقد تلفت حولى لأمسك بقلمى عنان موضوع أستطيع به مجابهة الشباب فى شىء من التوفيق ، ولكنى كنت كثير الحيرة بين ألوان التفكير ، كثير التردد بين صور الشباب المتعددة وأمانيه الواسعة ، فأنا أعلم من نزعات الشباب ما يعلمه الذى يكابد أعنف مراحله وأزخرها بالجرأة والتمرد !! « على حد تعبير الشيوخ وتصويرهم له » ، وما أزال ـ ولله الحمد الذى لا يحمد على المكروه سواه ، إن صح أن ثمة مكروه ـ فى دور الشباب الباكر .

وهنا لا أكتم الزميل الجليل صاحب « الجامعة » القول بأنى كدت أودع دعوته أضابير المحفوظات ، معتذراً من إجابة الدعوة الكريمة بهذه الشواغل المرتجلة المألوفة ، ولكنى توقفت عن هذا الخاطر فجأة .

إذ لم لا أحدث الشباب عن مظاهر العروبة فى القاهرة ؟ القاهرة التى احتملت فى الصيف الفائت ألوانا من الجدل الحاد العنيف حول هويتها اليوم : أهى مصرية فرعونية ، أم هى مصرية عربية ؟

إذن فلأتحدث عن القاهرة من هذا الضرب ، على ألا أحمل فى هذا الحديث آمالاً تهب مع الريح ثم لا تلبث أن تذهب بها الأعاصير ، أو نتمثل أحلاما تعانق السماء ، فنمس أقصوصة الوحدة العربية من ذلك الجانب الذى هلهله الهاتفون بها ؛ فالشباب الذى تتركز اليوم فى أذهانه تلك الأقصوصة سيعمل الآن ، وبعد الآن ، على أن يجعلها حقيقة صريحة لا دثار عليها رغم أنف الموتورين . سأحدثك عن القاهرة حين لا تبدو فى مظهرها القومى وحده ، بل حين تأخذ زينتها من ألوان الشرق العربى كله ، فأقول لك إن العروبة على ضروب صورها تجد فى مدينة الأهرام والأزهر حياة حافلة بما تثير فى النفس من أعمق عواطف الغبطة والسرور .

واسمحوا لى أن أزعم بحق أن « القاهرة » تستطيع وحدها أن تقتعد أريكة الصدر ، يوم يفاخر الناس بما تزدحم به العواصم الإسلامية من جماعات وجامعات ، وإذا كان الأزهر يحمل بين طواياه أسباباً من المجد ، فأوفر هذه الأسباب عندى أنه أتاح للشعوب الاسلامية أن تجتمع فى صحنه ، وأن تتزود من ثقافته . ولقد بقيت هذه البقعة الطاهرة من مدينة « القاهرة » تؤدى رسالتها حتى اليوم أداءً لا تعثر فيه ولا التواء ، ثم تجمعت إلى هذه الرسالة أسباب أخرى

يتصل بعضها بالصحافة ، ويتصل بعضها بالسياسة ، ويتصل بعضها بالأدب بعيداً عن الجو الصحفي ، وكانت جماع هذه الأسباب وليدة الحرب الكبرى قبل أن تكون وليدة الصلات التي جمعت طائفة من الشعوب العربية تحت التاج العثماني حتى آخر الحرب الكبرى.

كانت هذه الصلات وليدة الحرب ، فالشبان المصريون الذين اتجهوا إلى الميدان الشرقي قد عادوا إلينا وملء قلوبهم ذكريات طويلة عن هذا العهد ، برغم ما كان يكتنفه من ضروب الأحداث ، وما من شك في أن الشبان العرب قد مهدوا لأنفسهم ألواناً شتى من الأواصر ، وصوراً رائعة من العلاقات مع إخوانهم الذين نزحوا إليهم من مصر . ومهما يكن نظرنا إلى مكانة أولئك وهؤلاء ، فإنا لا نستطيع أن ننكر أثر هذه الأواصر والعلاقات وعملها الساحر في النفوس ، على ما فيها من سذاجة بالغة وبساطة لينة .

بعد هذه المرحلة أتيح لنا في مصر أن نعلم الشيء الكثير عن فلسطين وعن الشام كله وعن العراق وعن كل شعب عربي كابد الحرب عدواً أو صديقاً ، ثم استطاعت الأيام التي وحدت بين أولئك الشبان البسطاء أن توحد بين طوائف أخرى أعمق صلة بالحياة ، فإذا جهودنا السياسية منتظمة في سمط واحد ، وإذا جهودنا الأدبية بعدئذ تتلاقى في جدول واحد ، وكأن ماء النيل قد امتزج بمياه بردى وأمواه الفرات .

هذه الوحدة هي التي تعيش الآن في أسلوبها الشعبي ، وهي التي يريد المصلحون لها أن تعيش في أسلوب رائع وسمت أخاذ ، وإذا كنا قد لمسنا حظ « الوحدة » أو بعضاً منه في الشام وفي فلسطين والعراق ، فهلا يدعوك ذلك إلى التساؤل : أي حظ أصابته في القاهرة ؟

إن العروبة ترى في القاهرة أروع ما تنشده من حياة ، ففيها مصريون صدروا عن القرية المصرية ، ولم يعرف أجدادهم من الشرق العربي إلا مكة ، ولم يعد الشرق العربي عندهم حدود السماع ، ولكنهم مع ذلك يتحرقون إلى العروبة شوقا ويتدلهون بها غراما .

ففي دار العروبة القائمة على سيف النيل ، حيث يبسط فيها صاحبها العلامة « أحمد زكي باشا » سماط العروبة الأصيل ، يستطيع الشرقي أن يجازف في غير أناة ، فيقبل عليها دون أن يقال له من أنت ؟ وإنه لملاق فيها آناء الليل وأطراف النهار إخوانا يتصل كل واحد منهم بأمة شقيقة ، فهذا مغربي من الشمال الأفريقي ، وهذا عربي من صميم الكتاب ، وذاك عربي من أخاذ بغداد ، وذا عربي صدر عن كابل أفغانستان ، وهكذا وهكذا يتلاقى بالأمم العربية كلها مجتمعة في أفراد منها عند هذا الصعيد .

فإذا أخذ الشرقي حظه من « دار العروبة » ، وشاء الصلة بأفراد من أعلام المصريين ليطلع على ما في طوايا هم من نزعات حيال العروبة وأبنائها ، إذا به يدهش ويدهش حين يقرأ في طيات قلوبهم صفحات عامرة بذكر العروبة ، زاخرة بذكرياتها العميقة الطيبة .

ثم كل شيء في القاهرة يتناول العروبة وفق أسلوبه، فالأستاذ الدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب يعيش اليوم وفي دخيلة نفسه روح عربية لا تعرف حدود الأصقاع، ولا مسالك الفلك، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية لا يحفل بجلسة من الجلسات، أو يعنى بحديث من الأحاديث، بمقدار ما يحفل بجلسات العروبة، وأحاديثها الرائعة التي يمنحها نصيبها الأوفى، والأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك عميد معهد التربية السابق قلما يتخير في رسائله حديثاً لا يخاطب به العروبة في مظهرها الشامل، وغير هؤلاء جماعات وأشخاص كثيرون ـ لا يسمح المجال بذكرهم خوف الإطالة والملال ـ منتشرون في القاهرة، لهم طابعهم العربي، وأسلوبهم العربي، وميولهم العربية، وأطماعهم في أن تكون الصلة بين الناطقين بالضاد صلة وثيقة محفوفة بالنجاح واضطراد الفوز.

وما يقال عن هذه الجوانب الثقافية يقال عن نظائرها من الجوانب الأخرى، فنحن في مصر نعتقد أن مشاركة بني عمومتنا من العرب لنا فيما نتوفر عليه من أعمال ـ أيا كان نوعها ـ إنما تحمل معها حياة من الإخاء السحري، ووشيجة من وشائج القربى المتينة، التي لا تستطيع قوة في الأرض ـ بالغة ما بلغت ـ أن تفصم عراها، أو تهد من بنيانها الشامخ الذرا، الرفيع العماد.

وقد يسرك كثيراً أن تعلم أن الحفلات التي تقام في القاهرة لا نعدها ناجحة ما لم يكن من شهودها جماعة من أقطاب الشرق العربي، وما لم يكن من خطبائها جماعة أخرى من خطبائه المصاقع أو من شعرائه المبرزين النابهين، وقد يسرك كثيراً أن تعلم بأن الوافد من الشرق العربي على القاهرة لا قدرة له على الدعوى بأنه نزح عن بلده إلى بلد غريب، وأنى له هذه الدعوى العريضة، وإخوانه المصريون يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم؟ بل أنى له بهذه وهو محفوف أبداً بأصدقاء تنطوي نفوسهم على أعمق عواطف الود والإخاء، يوفرون عليه أسباب التزود من الحياة القاهرية التي لا ضريب لها في الشرق كله؟ وقد يسرك أيضاً أن تعلم بأن الفكرة التي تبدأ أول مراحلها في العراق أو في أقصى الجزيرة إنما تلقى حظها من الذيوع والانتشار في القاهرة قبل أن يتناولها الباحثون وكأنهم يجادلون رجلا لا يبعد عنهم إلا شبراً واحداً.

فهل يتاح لهذه المظاهر الجياشة بألوان الإخاء وضروب الود لها أن تحرك في «الشباب» عواطف أخرى؟

من المرجح عندي أن الشباب سيتناولونها بالتأمل الكثير، والتفكير الهادىء، وسيبتكرون لها حياة جديدة من حقها أن تكون استغلالا طيباً لهذه الصلات العميقة حتى تخرج من أسلوبها المشتت إلى أسلوب آخر أشبه ما يكون بالقصيدة الموحدة القافية. وإلى أن يبتكر الشباب هذا الأسلوب لاستغلال مظاهر العروبة في القاهرة أمد أيدي إليه مصافحاً ضارعاً إلى الله أن يهيء لنا من أمرنا رشداً؟

الدسلامبولي

شوقي وحافظ

لحضرة صاحبة العصمة السيدة ف . ع

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب المعرفة :

تحية وبعد : لعلكم تذكرون هذا الحديث الذى دار بيننا عن مكانة المرأة من الأدب، بحضور حضرة شاعرنا المجيد الأستاذ الهراوى صاحب الفضل الأكبر على شعر الطفولة وأناشيدها وغير ذلك ؛ وكم كان حضرته متحمساً لأن يثبت أنه يوجد عندنا (أى بمصر) أستاذات فى العلوم والتربية ، ولكن لا توجد شاعرات أو مشتغلات بالأدب أسوة بنهضة الرجل فى ذلك .

ومن حسن الاتفاق أنى حصلت على مسودة لدرة شعرية لسيدة فضلى من كرائم الأسرات العريقة فى الفضل والأدب إلى جانب ما انفردت به من رسوخ قدم فى رفع لواء العدالة ؛ ونيلها القدح المعلى فى استقامة القسطاس فى مصر . وإنى أبعث إلى مجلة « المعرفة » الغراء بهذه الخريدة من شعر هذه السيدة الشاعرة المطبوعة ، لأؤكد لحضرة الأستاذ الهراوى أن هناك مئات من الشاعرات والأديبات تظلهن القصور العالية ، وتتكدس أعمالهن الأدبية فى مكتبات تلك القصور حتى يحين الوقت الذى يستطيع المجتمع المصرى أن يستمتع بشىء منه .

وإنى لا أذكر أنى قرأت أو سمعت – فيما قرأت وسمعت من رثاء حافظ وشوقى والإشادة بفضلهما على الأدب وتلخيص مجهودهما ورثائهما الحار وإيفائهما حقهما من الشكر فى إيجاز وسلاسة وأمانة – مثلما رأيت فى هذه القصيدة .

وإنى أرجو أن تكون فاتحة موفقة لأن نحصل على قصائد أخرى لحضرة السيدة، فإنى أعلم علم اليقين أن لدى حضرتها الشىء الكثير فى مختلف المعانى، ورجاؤنا ألا تضن علينا بذلك خدمة للأدب.

منصفة

***

خطب دهى مصراً فأعيا الشعر والأدبا ... وزاد فى القلب نيران الأسى لهبا

هوت لهول مصابيها النجوم أسى ... وخلفت مسرح الأفلاك مضطربا

شوقى وحافظ بانا عن خمائلها ... فمن يعيد إليها الأنس والطربا؟

فالطير بعدهما أنات ثاكلة ... تقول: كانا فخار الروض واحتجبا

مضى الذى استنزل الإلهام يبعثه في سلسل من نمير الفكر قد عذبا
يا مُرْسلا في ديار الخلد إنك بالـ وحى القديم شفيت الداء والعطبا
أثكلت مصراً وبغداداً وأندلسا والشام والفرس والأتراك والعربا
ياموت! يكفيك ماجرعت من غصص، يا موت! حتى السجايا تقتنى سَلَبا؟
في القلب والجفن جرح غير مندمل قلب جريح ودمع بالدم انسكبا
أستغفر الله لا كفراً ولا جزعاً كلا، وهل حيلة في رد ما كتبا؟
هي المقادير لا تجرى لنيل منىً ولا لدفع قضاء الله إن قربا

***

فقيدُ مصر فقيدُ الشرق أجمعه يشاطر الشرقُ فيه الغربَ منتحبا
ما شب إلا حريّاً بالإمارة فى باب الملوك وإن لم يؤتها نسباً
أو شاب إلا أميراً بالنبوغ وما من شاعر قبله قد أحرز اللقبا
قالوا: جرير، فقلنا: لا يضارعه ولا طراز جرير منه قد قربا
وإن غلت (أسواق عبر) في معارضه أسواق «أحمد»[1] كانت كلها ذهبا
ما أجمل الدر نظما فى قلائده وأبدع الزهر منثوراً إذا كتبا
قد كان يملأ جو الشرق مفخرة بين الشعوب وكان البالغ الأربا
[illegible] عنه يسرى كل نازلة وكان يهتز فى أفراحه طربا
قومية نهضت فى غرة سطعت بنورها يهتدى من ينشد الأدبا
نقد، ووصف، وتهذيب، وتسلية، فوق المسارح زادت أمره عجبا
قد مثلت فى خيال الشعر مملكة أحيا بها الفرس والأتراك والعربا
شوقى وحافظ كانا الرافعين لو اءَ المجد للشرق أنى للعلا ذهبا
كم أمدا النشء فى تكوين نشأته وهيأ للـ[illegible]ى نحو السها السببا

---

(١) إشارة إلى كتاب المرحوم شوقى بك المسمى «أسواق [illegible] وهو من خير ما كتبه فى النثر

وأغنيا اللغة الفصحى وما برحا مهذِّبين بها الأقلام والكتبا
حتى أطاعا وشيكاً أمر ربهما وأورثا النيل فخراً جاوز الشهبا

* * *

إن يعقب الأول الثانى فلا عجب فما عهدناهما إلا قد اصطحبا
علىّ دين لكل منهما ، أيفى ضعفى به ، وهو يعيى الأيِّد الأربا ؟
كلاهما قد رثى لى « درة » نُزعت منى بدرة فكر زانت الأدبا
« من لى بفضل بيان أستعين به » على رثاء يؤدى بعض ما وجبا ! !

* * *

إن التراب لمن أجسام من سبقوا وخلّفوا الدمع هطالا ومنسكبا
يصيب منه نبات الأرض نضرته لوناً وشكلا ويجلو حسن ما اكتسبا
هو الغذاء الذى مما عناصره هو الحياة التى من مائها شربا
فقوته من قلوب طالما نعمت وشربه من جمال طالما عذبا
ولم تفز غير أرواح لها صعدت وغادرت دونها الأفلاك والشهبا
فالله أكبر فى كينونة نزعت منا الخلود وفيما الله قد وهبا
وفى قضاء وفى عيش وفى قدر وفى احتمال الأسى فى أن يقال خبا

* * *

فى ذمة الله فى فردوس رحمته شوقى وحافظ من بدرين قد غربا
إن يخشيا ضجعة الأحجار دونهما فمن جدود تحيى فيهما النسبا
أو يخشيا ضجعة والترب فوقهما فمن قلوب ولكن مزقت إربا
عليهما رحمات الله دائمة دوام غيث على قبريهما صببا
إليهما من دعاء الشعب أطيبه ما أحزنا مصر والأهلين والصحبا

ف . ع

الاسلام والعلوم الجغرافية

محاضرة ألقاها بالألمانية فى رابطة الثقافة الاسلامية بفينا

الأستاذ أحمد زكى وليدى بك

أستاذ التاريخ التركى بجامعة استنبول سابقاً

إننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن الزمن الذى كانت تعتبر فيه التحولات التى نجمت عن الفتوحات العربية والتركية والمغولية وعن هجرات هذه الأقوام من شمال شرقى وجنوب غربى آسيا نكبة على تاريخ العالم وتعد كارثة على الحضارة الانسانية . أما الآن فالعلماء أمثال هنرى بيرينيه والأخوين اسكندر وأوجين كوليشر، ثم هنا فى فينا الأستاذ روبش والأستاذة ارنا باتسلت، يبرهنون على العكس أن هذه الحركات لعبت دوراً عظيما إيجابياً فى تاريخ المدنية .

إن حوادث التاريخ مرتبطة فيما بينها ،فبدون الثقافة الكلاسيكية لا يمكننا تصور وتقدير الثقافة الاسلامية ، وكذلك الحركة الثقافية الحديثة فى الشرق لا تتصور وتقدر بدون المدنية الأوروبية، وبالمثل لم تكن الثقافة الافرنجية لتقوم لها قائمة ما لم تقم المدنية الاسلامية فى التاريخ، وكما قال بيرينيه « بدون محمد لم يكن أحد يتذكر شارلمان » .

ولو لم تدخل فى الاسلام شعوب وسط آسيا (الايرانية والتركية) لبقى الاسلام ديناً محصوراً فى غرب آسيا، ولما صار مدنية عالمية استطاعت أن تنتشر إلى شواطىء المحيط الهادىء، ولو لم يفتتح المسلمون الأتراك بلاد الهند لما تيسر للهند أن تشترك فى الحركة الثقافية التى قامت فى غرب آسيا فى العصور الوسطى ، وكذلك لولا الضغط العربى والبربرى عن طريق اسبانيا لما انتشرت التجارة الألمانية البحرية فى بحر البلطيق .

ولم تتسع التجارة والعلاقات الثقافية بين آسيا (شرقا ووسطا وغربا) وبين شرق أوربا إلا بعد الفتوحات المغولية ـ ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ـ التى نشطت بها حركة تأسيس الشركات التجارية العالمية . وقد أصبحت اليوم هذه المسائل ـ وخاصة تأثير سيول الهجرة الجارفة من آسيا نحو العالم الخارجى ـ محل عناية عظمى عند كثير من العلماء .

إن العرب والبربر وكذلك الأتراك المغول لم يكن لهم من التأثير فى الحركات الثقافية للشعوب الأخرى أن بثوا عوامل النهضة فحسب ، بل إن ثقافتهم ذاتها كانت غنية المادة غزيرة القوة [illegible] ، ونجد اليوم أن دراسة الحركات الثقافية من الوجهة البسيكولوجية وعلاقاتها الزمانية والمكانية إحدى المسائل التى تستغرق عناية المؤرخين والجغرافيين العصريين .

تكوّن الجغرافية الاسلامية أساس مثل هذه الدراسات، وقد بين باركارات وتوماشك وبارتولد وبسترانج وشفارتز بوضوح أهميـة هذه المعلومات عن غرب وأواسط آسيا ؛ فلولا العلوم الجغرافية التاريخية الاسلامية لما وصل إلينا علم عن حياة المدن وثقافتها فى غرب ووسط آسيا ليس فقط فى العصر الاسـلامى بل فى زمن الساسانيين . وقد وضح فرين وماركارت ويعقوب ونيمت أهمية هذه الجغرافية لشرق أوربا ، كما وضحها رينو وساخاو وفراند لجنوب شرق أوروبا وجنوب شرق آسيا.

وإن مؤلفات علماء الجغرافية الأقدمين من العرب (البتانى والخوارزمى وسهراب) تعتمد فى وصف أقاصى المعمورة على المصـادر اليونانية . وأما الجغرافيون الذين يرجع أصلهم إلى وسط آسيا (مثل الجيهانى والـكرديزى والمؤلف المجهول لـكتاب حدود العالم، ثم البيرونى) فقد خلصوا هذه المعلومات تدريجاً من التأثيرات اليونانية والانجيلية واليهودية .

ولـكى تتوفر المعرفة عن شرق آسـيا وشرق أوربا ، كان قيام الدول الثلاث التركية المسلمة أعنى القراجانية (أو الأيليكية) فى وسط آسيا والغزنوية فى جنوب آسيا والبلغار المسلمين على شواطىء الفولجادا أثر عظيم، فتمكن العلامة البيرونى من تدوين تواريخ مضبوطة عن شرق آسيا والاوقيانوسية عن طريق التركستان الشرقية والطرق البحرية فى جنوب وشرق آسيا ، ثم عن شرق أوربا عن طريق التجار البلغار والخوارزم ، وأمكنه أيضـاً عن طريق سفراء الصين والتركستان الشرقية الذين كانوا ينتمون إلى أصل تركى إسلامى وأتوا عن طريق البحر والهند إلى غزنة فى أفغانستان الحاضرة ، أن يستقى معلومات وبيانات عن القطب الجنوبى وراء المحيط الهندى . ويستفاد من سائر كتابات البيرونى أن التجار المسلمين الأوائل من عهـد الأمويين أسسوا مستعمرات فى البحر الأخضر أعنى المحيـط الهندى حول جزائر جاوه ، وتزوجوا من نساء تلك الجزائر .

وإنى أظن أن كلام الجغرافى ابن رستة (طبعة دى جويه ص ٨٨٠) عن مكان فى أرض الزنج حيث يكون النهار ست ساعات فقط ، يرجح أنه كان يعنى جنوب أستراليا ، ولو أن القس أ. كايس الألمانى وجبريل فيراند الفرنسى أرادا تعليل كلامه تعليلاً آخر .

وقد كان البيرونى أول مسلم أورد بيانات بأسماء نهر أنغار فى شرق سيبريا وبأخبار السكان فى مناطق بحيرة البايقال ومناطق أسكندناوه القديمة المسماة « ورنك » ثم عن صناعة المعادن فى شمـال شرق أوربا ، وكذلك عن البحر المنجمد الشمالى . وتمـكن عن طريق التجار المسلمين فى أفريقيا أن يحصل على معلومات قيمة عن جنوب أفريقيا ، وعن موزمبيق (سفالة الزنج) وعن البلاد الواقعة جنوبى خط الاستواء ، حيث يظن البيرونى أن الوقت يكون هناك شتاء حين يكون عندنا صيفاً — وطبعاً لم يكن بين معلومات هـذا العلامة المطلع أمثال جبال قاف

(الموجودة فى المنقولات الاسلامية) ولا الخرافات اليونانيـة عن عجريب وهيـبربورى Agribhie ec Hyberborie، ثم عن سد يأجوج ومأجوج التى كثيراً ما بحث عنها الجغرافيون المسلمون الأقدمون فى شمال بحر الخزر أو خلف جبال تيانشان ، فلم تكن فى رأى البيرونى سوى الأجزاء الغربية من سور الصين ، كما يعتبره كذلك العالم التركستانى محمود الكاشغرى فى خريطته ، والجغرافيون المعاصرون أيضاً مثل دى جويه ومارقوارت .

ومع هذا بقى الشرق الأقصى مجهولا نوعاً ما عند البيرونى أيضاً، فعنده أن الإقليم الثانى ينتهى حيث تنتهى الأقاليم: الخامس والسادس والسابع . أما فى عهد المغول فلم تبق هناك بقعة لم تكن معروفة للمسلمين فى شرق أوربا وشمال شرق وجنوب آسيا . فالوزير المغولى فى إيران (رشيد الدين) قد دون بيانات هامة مطولة عن الجغرافيا وعلوم وصف الأقوام فى وسط وشرق آسيا ، كما ترك لنا مؤلفات عن تاريخ الصين والهند وأوربا حافلة بالصور المقابلة، وتلك الصور توضح بدقة أشكال الصينيين والأوربيين وأزياءهم فى ذلك العهد البعيد . ونجد فى هذه الكتب نبذاً قيمة عن الصين والهند وأوربا (وتوجد أحسن المخطوطات الباقية من هذه الكتب المصورة فى مكتبة طوبقبوسراى باستانبول) وكان للجغرافيين المسلمين فى عهد المغول تأثير فى العلوم الجغرافية فى الصين، فإن الخريطة الصينية الرسمية التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ هى ـ كما أثبت البرت هرمان ـ إما أن تكون قد رسمت بإرشاد الجغرافيين المسلمين أو إنهم هم الذين وضعوها . وهناك مهندس مسلم آخر هو قطب الدين شيرازى خدم المغول فى إيران، وقد رسم خريطة عام ١٢٩٠ للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى الملك المغولى الأيلخانى أرغون خان ، كما أن المغوليين جنكيز وتيمور وغيرهما استخدموا كثيراً خرائط الجغرافية لأغراض حربية فنية. وفى عهد خلفاء أرغون ـ وهما غازان وأولجايتو ـ ألفت جغرافية للعالم اشترك فى تصنيفها علماء من مختلف الأقطار .

ولكن مع الأسف لم يمكن العثور إلى يومنا هذا لا على الخرائط السالفة ولا على هذا المؤلف الجغرافى للعالم، وما تلى ذلك من مؤلفات فهو فقير فى مادته الأصلية. ولكن مع هذا فقد ترك لنا المغول ـ وخاصة تيمور ـ أوصافاً مفصلة لأسفارهم الحربية وخطوط زحف جيوشهم التى كان يرسمها لهم كتابهم المعروفون باسم بخشيه ، ثم ترجمت هذه الكتابات فيما بعد إلى اللغة الفارسية .

وقد تمكنا لأول مرة من الحصول على معلومات تختص [illegible] والمركز الاقتصادى لآسيا الصغرى وإيران عن طريق الجغرافيين والمؤرخين فى بلاد المغول ، كما عرفنا أيضاً لأول مرة عن طريق المدونين المغول ـ مثل رشيد الدين دوصاف، وربابنة المراكب العربية (مثل أحمد بن ماجد وسليمان بن أحمد المهدى) ـ شيئاً عن طرق التجارة البحرية فى جنوب

شرق آسيا والتى نشطت من جديد أثناء نفوذ المغول فى إيران والصين كما وصلتنا معلومات وأخبار دقيقة عن جزر الأرخبيل الملايى .

إن الجغرافيين المسلمين إذا ووزنوا بأمثالهم من اليونانيين تبين أنهم خطوا بالعلم خطوات واسعة مميزة كما استقصى ذلك بارتولد ، لأنهم اهتموا بحياة الشعوب المدنية والاقتصادية والثقافية ، أكثر مما اهتم بها علماء اليونان كما وصفوا عاداتهم ولغاتهم وعقائدهم .

ثم إن تعيين خطوط الطول والعرض للمدن كان مضبوطاً خاصة عن البيرونى ، ووصف مراحل الطرق فى البلاد كان أيضاً وافياً خاصة عند جغرافيي العهد المغولى (حمد الله قزوينى وحافظ أبرو) حتى إنه لو وضعت خريطة لإيران وما وراء النهر حسب معلومات هؤلاء لوجدناها لاتختلف اختلافا بيناً عن الخرائط المستعملة اليوم .

ولكن مع الأسف نجد أن المصادر الجغرافية الاسلامية خاصة فى الشرق نفسه ليست فى متناول المهتمين بهذا الموضوع، وكانت العناية حتى الآن موجهة نحو الطبعات القديمة للجغرافيين الأقدمين (ومنها ما نشره دى جويه وناللينو ومزيك)، ولكن لم يترجم منها إلى اللغات الاوربية سوى القليل (مختصر ابن خردادبه وقدامه وجزء من الخوارزمى ثم المقدسى والبتانى) ولايزال من المتعذر العثور على بعض مؤلفات أعلام الجغرافيين (مثل مؤلفات الجيهانى ومفصل ابن خردادبه، وكتاب صور الأقاليم لرشيد الدين) ومعظم ما وجد إلى الان من هذه المؤلفات لايزال بهيئة مخطوطات محفوظا فى مكاتب الممالك المختلفة، وهذه المخطوطات المبعثرة فى المكتبات المختلفة لم يتح إلا للقليلين من العلماء دراستها وهى دراسة غير كاملة (مثل بارتولد ولسترانج، وإذن فهذه المؤلفات تصبح لها قيمتها وفائدتها الفنية إذا هى طبعت مشفوعة بالانتقاد والتحليل .

وإنى أقول : « الانتقاد والتحليل » ، لأن المصادر الجغرافية الإسلامية لها أخطاؤها أيضاً، ومعظمها ـ وخاصة ما ألف بعد القرن العاشر ـ تبرز منه صورة مميزة للجغرافية التاريخية لذلك العصر أيضاً. فالجغرافيون ـ ما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر ـ كالإدريسى والدمشقى (وهذان مترجمان إلى الفرنسية) والبكرى (ماعدا تقريره عن غرب أفريقيا) والعمرى (وهذا مترجم جزء منه) ومعجم البلدان لياقوت الحموى، يصورون الدنيا ليس فقط كما رأوها هم بل كما وصفها المؤلفون الأقدمون أيضاً، وكثيراً ما ذكروا ما كتبه هؤلاء الأسبقون دون الإشارة إلى أسمائهم. فمثلا الإدريسى يجمع بين تقارير الأقدمين من المؤلفين المسلمين واليونانيين مع تقارير معاصريه دون أن يذكر أن هذا امزج من عنده هو، وهكذا انتقلت هذه الأمزجة فيما بعد إلى مؤلفات خلفه ومنهم ابن الوردى وابن سعيد الأندلسى.

لذلك أصبح من السهل أن يقع الإنسان فى الخطأ فينسب تقارير المؤلفين الأسبقين إلى

المؤلفين المتأخرين . ومع ذلك فهذه التقارير إذا حقق بالبحث الانتقادى التحليلى مصدرها فقد يمكن فى بعض الأحيان الوصول من وراء ذلك إلى بيانات عظيمة القيمة . وحتى المؤلفين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مثل الشيخ أبى الفضل العلامى وأمين أحمد رازى فى الهند وكاتب جلبى فى تركيا ومحمود بن ولى فى تركستان (وهذا الأخير مؤرخ من العصر المغولى المتأخر وقد عثرت على أهم مؤلف جغرافى له سنة ١٩١٤ من بخارى) قد استقوا معلوماتهم من مصادر مفقودة الآن . كما أن أمين أحمد رازى استعمل مثل غيره كتابات جغرافية لرشيد الدين لم توجد للآن، وهكذا نجد أنه إذا عنى بجمع ودراسة مثل هذه المؤلفات الإسلامية الجغرافية فى العصر المتأخر دراسة تحليلية انتقادية ونشرت لكونت كنزاً ضخماً للمدققين من علماء تاريخ الثقافة العالمية .

وهنا أريد أن أعطى مثالا يرى كيف أن الذين أوجدوا العلوم الجغرافية الإسلامية كانوا يدركون تفوقهم على اليونان ويعتدون بمقدرتهم الشخصية ويعرفون حق المعرفة ما يجب عليهم أداؤه نحو العلم . وها أنذا أذكر نبذة من كتاب لم يسبق نشره للبيرونى عن أصول التحقيق الجغرافى، وهذا الكتاب أتمه فى سبتمبر سنة ١٠٢٥ فى غزنة (فى أفغانستان الحالية) والنسخة الخطية الوحيدة بخط المؤلف موجودة فى مكتبة جامع محمد الفاتح باستانبول (نمرة ٣٣٨٦) قال :

« إن غرضى هو معرفة خط الطول لبلد معين على سطح الكرة الأرضية وهو غزنة، فإلى الآن أمكننى أن أحقق خط عرضها ، أما عن خط الطول فقد عاقتنى عدة موانع عن إمكان التثبت منه، ولكنى لو كنت ألتمس لنفسى عذراً بهذه العوائق لكنت كافراً بأنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة ، ثم بفضل ولى النعمة التى يسبغها على (الأمير محمود الغزنوى)؛ ولكن كانت هناك موانع أخرى وهى عدة مشاكل علمية وحلها أدعو الله سبحانه وتعالى التوفيق ولم يفل عزيمتى فى سبيل حلها الوقوف على شفا الخطر روحاً وجسما . وإننى سأسارع فى تحصيلها وإتمامها قبل حلول الأجل . فإنى أقول إن معظم المعلومات فى كتاب الجغرافية (لبطليموس) عن الطول والعرض لبلاد معينة من سطح الأرض مصدرها السماع من أناس مختلفة شاسعة البعد وباستخدام هذه المعلومات لابد أن يكون بطليموس قد اتبع الطريق الصحيح ـ وعلى كل حال فالأساس الذى بنيت عليه هذه المعلومات هو المسموعات، لأن تلك البلاد كانت متعذرة الوصول بسبب التباين الملى . نعم لأن هذا التباين الملى كان العائق الأكبر للسياحة فى البلاد، فنحن نرى أن بعض الشعوب ـ مثل اليهود ـ تعتقد أنها تكون مقربة إلى الله إذا اغتالت أضدادها من الشعوب الأخرى . أو أن بعض الشعوب ـ مثل الروم ـ كانت تعتبر الأجانب عبيداً، وهذا

أهون عاقبة ، أو أن السائح لكونه أجنبياً فى تلك البلاد قد يعتقل وتحوم حوله الشبه المختلفة فيكون مركزه محفوفاً بالمخاطر .

أما الآن فقد تغيرت الظروف ، فإن الاسلام امتد من شرق الأرض إلى غربها حتى الأندلس فوصل شرقا حتى حدود الصين وإلى أواسط الهند وجنوباً إلى الحبشة و بلاد الزنج (يعنى جنوب أفريقيا والأرخبيل الملايوى وجاوه) وشمالا حتى بلاد الترك والصقالبة (السلاف) وجمع الأمم المختلفة على أساس الألفة التى هى صنع « تفرد الله به » ، ولم يبق منهم إلا ما يكون من فساد ذوى العبث وقطاع الطرق وصارت البقية المصرة على الكفر تهاب الاسلام وتعظم أهله وتهادنهم : فأصبح آنئذ تحصيل الأبعاد الجغرافية بالسماع أوثق وأصح ؛ فكثيراً ما نجد فى كتاب الجغرافية (لبطليموس) بعض المواضع موقعها فى شرق مواقع أخرى بينما تكون فى الحقيقة المشاهدة غربية الموقع وبالعكس . والأسباب التى أدت إلى هذه الأخطاء إما ناشئة عن خلط أبعاد المراكز التى بنيت عليها خطوط الطول والعرض ، وإما ارتحال الأقوام من هذه البلاد إلى مواطن أخرى مع نقل أسماء هذه البلاد معهم » . انتهى كلام البيرونى .

وإذا تبينا من هذا المثال كيف أن البيرونى كان يعلم جيداً أنه ومعاصروه من الجغرافيين المسلمين فى ظروف أسعد من ظروف المؤلفين اليونان ، فإننا نرى أيضاً فى كتب أخرى لهذا العلامة أنه استفاد من هذه الفرصة أيما استفادة لكى يزيد فى معلوماته وينميها ، ويبدو لنا أنه كان دائماً شغوفا بالاطلاع على كل جديد فى العلوم التى نهضت باتساع الدول الإسلامية فى جنوب ووسط آسيا فى عصره .

ثم إن لهذه القطعة التى ذكرناها للبيرونى مغزى آخر فهى ترينا كيف أن عالماً خوارزمياً (خوارزم الآن فى تركستان الحاضرة) قدر انتشار الاسلام فى وطنه وفى بقية العالم أجمع ورحب بتعاون الشعوب المختلفة فى سبيل المدنية نتيجة لدخولها فى حوزة الاسلام .

وفى خوارزم – فى عهد البيرونى – لم يكن هذا التعاون مقصوراً على المسلمين بل تعداه إلى المسيحيين . أما الآن فإننا نعيش فى زمن يطغى فيه الشعور القومى شيئاً فشيئاً فى أنحاء العالم ، وكذلك ظهرت بين المسلمين من غير العرب بسبب نمو ذلك الشعور مضادة لعالمية الاسلام وذيوع اللغة العربية ، ولكن يصبح من الخطأ الفاحش أن يهمل ذلك الدور الإيجابى الذى لعبه تعاون الشعوب فى العصور الوسطى فى آسيا بسبب الاسلام أو أن تعد أعمال علماء المسلمين – سواء أكانوا إيرانيين أم أتراكاً أم هنوداً أم غيرهم من الشعوب فى نظر الحركات القومية العصرية – باطلة أو جديرة بأن تطرح جانباً أو أن تنسب مؤلفاتهم التى كتبت باللغة العربية إلى زعامة العرب السياسية فى ذلك العهد .

ولم يفت البيرونى أن يقدر - بشعور صحيح أيضاً - أثر التعاون الذى قامت به الشعوب المختلفة فى ميدان الثقافة فى مؤلفاته الأخرى . وكان الاسلام فى نظر البيرونى مدنية أكثر منه ديناً ، واللغة العربية لغة علمية أكثر منها لغة للقرآن .

وكان توطيد قوة الاسلام فى مبدأ الأمر فى وسط آسيا قائماً على التوافق بين انتشار النفوذ السياسى للعرب وبين ميل تجار تلك البلاد إلى ترك نظام الإقطاعيات الذى كان سائداً هناك ، وقد خدموا الإسلام إذ ذاك مثل المبشرين حتى فى الأماكن الشرقية النائية الخالية من النفوذ السياسى للعرب ، مثلما أنهم فيما بعد فى الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) خدموا جنكيز المجوسى ضد إخوانه المسلمين مثل خوارزم شاه وغيره من ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون على نظام الإقطاعيات الذى عقته هؤلاء التجار ؛ وذلك لأنهم رأوا مصلحتهم التجارية فى ذلك .

ثم إن احتلال العرب للتركستان لم تصحبه ذكريات مؤلمة عند الشعب التركستانى بعكس ما كانت الحال عند الشعب الإيرانى . وقد تكيف الاسلام بالتدريج بما يطابق روح تلك البلاد حتى إنه فى زمن البيرونى كانت السلطة السياسية كلها فى أيدى المسلمين من أهل البلاد أنفسهم ، فكان الاسلام عندهم ديناً يحمل فكرة إرشادهم إلى سبيل التعاون بين الشعوب المختلفة فصادف ذلك هوى فى أفئدة علمائهم مثل البيرونى .

ويجب أن نتذكر جيداً أن ما أمكن الإتيان به من العظائم فى التاريخ قام على أساس تعاون الشعوب فى فكرة واحدة ، وذلك لم يكن جلياً فى تاريخ نهضة الثقافة الاسلامية فى العصور الوسطى فقط بل فى جميع أدوار تاريخ البشر .

وعندى أنه إذا عنى بنشر المدونات الجغرافية الإسلامية مع التحليل والانتقاد كما بينت آنفاً ، عن طريق اهتمام الهيئات الإسلامية الحاضرة من جهة ، والتعاون العملى مع علماء أوربا من جهة أخرى ، لأمكن أن تهيأ تربة صالحة لبذور التعاون الجديد المثمر لهذه الدول والشعوب الاسلامية .

ومن الواضح الجلى أن دراسة تاريخ ثقافة العالم الإسلامى تقوم على أساس متين إذا لم تبق كالسر محصورة بين علماء اللغة والمستشرقين ، بل باتساع نطاقها من جهة البحث والتدقيق حتى تشمل كل الدوائر العلمية العامة . وكذلك إذا أصبحت هذه المصادر الشرقية لجميع فروع العلم فى متناول معاهد العلم وكلياته التى تشتغل بالبحوث فى تاريخ حضارة البشر .

فلهذا أعتقد أن ترجمة هذه المصادر الجغرافية الاسلامية وسائر مصادر تاريخ المدنية الاسلامية إلى أمهات اللغات الأوربية واجب تشترك فى تأديته جميع الشعوب المتحضرة فى العالم .

أحمد زكى وليدى

الحفريات فى العراق

للأستاذ محمد يحيي الهاشمى

مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

شوقى العظيم لمعرفة المعادن المنتشرة فى البلاد العربية جميعاً من الخليج الفارسى إلى جبال الأطلس ساقنى للاطلاع على كثير من البحاثين الغربيين الذين أموا بلادنا لدراستها من كل الجهات؛ فبعد أن درس الأوربيون أرضهم وعلموا ما فوقها وما تحتها شبراً شبراً طافوا آفاق العالم ليدرسوا الأقطار النائية عنهم، لأنهم يودون أن يعرفوا الحياة كما هى؛ ومعرفة الحياة كما هى اضطرتهم أن يفحصوا كل نقطة من النقاط كى يبتعدوا عن الحكم المستعجل. هكذا تواضعوا للمعرفة وجمعوا قواهم وسعوا سعيهم نحو هدفهم فتقدموا وهكذا تقاعسنا ونمنا فتأخرنا. لقد اكتفينا بالقليل، وإذا علم أحد منا شيئاً يسيراً ظن نفسه أنه أدرك علوم الأولين والآخرين. تعودنا ألا نشجع بعضنا بعضاً على العمل فنثبط همتنا ونعيش بذلك فى دياجير الظلمات لا نفتح أعيننا لنرى ما فى الكون. أو يطربنا أن نرى العلماء الأوروبيين من ألمان وإنكليز وإفرنسيين وهولنديين يشتغلون فى استنباط علومنا ونحن لا نفكر فى هذا الموضوع التفكير اللائق.

ولو تزجرون الطير يوما علمتمو   لما تحته من عثرة وشتات

هل علمت أيها الأخ أن الأوربى يدرك مدنيتنا وقيمتها العلمية والتاريخية أكثر منا؟ ألا نعتبر بالبحاثين من شتى المدن؟ ربما يقال إنا قوم فقراء وليس عندنا من المال ما يقوم بالمطلوب للبحث والتنقيب والاشتغال العلمى والنهوض بأمتنا الكريمة.

نعم إنه كذلك ولكن التكاتف والعمل المشترك يزيل كل عثرة؛ أما الإهمال فيثبط الهمة ويكون سبباً لأن يعيش بعض أبناء وطننا المخلصين مبعثرين فى العالم لا وطن يأويهم ولا شعب يأخذ بيدهم، ينظرون إلى الشرق بحنين وألم وإلى الغرب بإعجاب وتقدير.

وإذا سردت هنا شيئاً طفيفاً عن بعض التنقيبات فى العراق، تلك الأرض التى أشغلت علماء الأوروبيين عصوراً عديدة، لعلمنا ماهى الهمة العظيمة التى يبذلها الأوروبى متكاتف اليد لإحصاء كل شىء والاطلاع على كل حقيقة.

العراق: أرض الحضارات العريقة الأصل، موطن آشور وبابل، مشيد إيوان كسرى، مقر الخلفاء العباسيين، جذبت قلوب كثيرين من البحاث الكبار الذين وقفوا جل حياتهم

لكشف الغطاء عن مدنية من تلك المدنيات ، حيث فى هذه الأرض شتى الوثائق التاريخية القيمة المغمورة تحت التراب التى تجيبنا عن أسئلة عديدة وتحل لنا جم الألغاز .

والذى يجلب دقة نظر الأوروبيين اليوم ، كيفية ولوج المدنية الإسلامية فى فارس والعلاقة ما بين الساسانيين وهم الفرس قبل الاسلام، وأوائل المدنية الاسلامية فى العراق؛ فهناك كانت حروب طاحنة بين الفرس والروم ، وبين العرب والروم ، وكذلك بين العرب والفرس .

بلاد ما بين النهرين كانت الطريق الوحيدة إلى الهند فى العالم القديم الموصلة بين الشرق والغرب ، والتى يجرى فيها النهران العظيمان: الدجلة والفرات العاملان على خصب أراضيها ؛ فلا غرو أن تكون تلك الأرض مطمح أنظار الفاتحين منذ ذلك الزمن البعيد الذى دون لنا التاريخ عنه أخباراً ضئيلة .

ولقد تجول كثيرون من الأوروبيين للبحث والتنقيب فى تلك الأصقاع : فمنهم من كان يبحث عن المعادن والزيوت ، ومنهم من كان يسعى لنبش تراث الأقدمين ليقرأ أخبارهم ، ويرمى نظرة عميقة فى طراز حياتهم الماضية. ولقد أرانى الدكتور شميد المعاون فى متحف قيصر ويلهلم فى برلين فى الشعبة الاسلامية ، آثار مدينة سامرة « سر من رأى » ، تلك المدينة التى بناها الخلفاء خارج بغداد على ضفة نهر الدجلة ليعيشوا قسما من حياتهم بعيدين عن ضوضاء المدنية وفى سكون الطبيعة الهادىء . ولو رأى الانسان تلك الآثار من مدينة (سر من رأى) فى المتحف لكاد يظن أنها غرف حديثة ليست منبوشة من الآثار القديمة؛ لأن الاعتناء والدقة والاهتمام بالشىء يجعله قريباً من كيانه الأول .

اشتغل البحاث الألمان فى جمع آثار هذه المدينة قبل الحرب العامة، وقد جمعوا ماقدروا عليه ؛ أما اليوم فيشتغلون فى العراق فى تلك المدينة المهمة جنوبى بغداد ، التى جمعت آثار ثلاث مدنيات : « مدنية العرب والفرس والروم » ؛ ألا وهى مدينة كتزيفون التى يسميها العرب « المدينة العتيقة » .

ساح الأستاذ ساره Sarre المدير السابق للشعبة الاسلامية لمتحف برلين عام ١٩٢٠ فى أرض العراق، وأدرك أن كثيراً من التسميات الدارجة على الأفواه لاتطابق الواقع ؛ مثل القصر الذى يزعم أنه إيوان كسرى هو ليس بإيوان كسرى بل هو قصر رومى، واستدل على صحة قوله من طراز البناء والمخطوطات الموجودة فيه ، وقد رأى ضرورة القيام بالحفريات ونفذت خطته عام ١٩٢٨ بمساعدة الجمعية الألمانية لدراسة الشرق وجمعية إسعاف العلوم .

كتزيفون

عن العصر الذهبي لكتزيفون يخبرنا كثير من كتاب العرب والمؤرخين والجغرافيين المبعثرة مخطوطاتهم فى شتى خزائن مكتبات أوروبا ، ولكن لم تنظم تلك الوثائق التاريخية حتى هذا اليوم ، وتصير سهلة الاستعمال . وهذا الباب لايزال مفتوحاً لمن أراد أن يبحث ؛ وقد استخرج من تحت الأرض كثير من آثار البناء الفارسى لخزانات القصر المعروف بـ (ثق - كسرى) من كتزيفون ، واستخرج أيضاً بعض الآثار من أوائل العهد الاسلامى فى مدينة « سلمان - ياك » أى سلمان التقى .

والمدينة الثانية المهمة هى مدينة زليخة التى كانت مقابلة لكتزيفون على ضفة نهر الدجلة ، ولكن النهر لايمر اليوم من مدينة زليخة ، بل بين أطلال كتزيفون ، ويشاهد جليا آثار ضفة النهر القديمة ، وهكذا غير النهر مجراه على ممر الدهور على ماكان عليه فى السابق .

وتلك الآثار التى جمعت موجود قسم منها فى متحف بغداد ، والقسم الآخر فى الشعبة الاسلامية لمتحف برلين . وقد سنت اليوم الحكومة العراقية قانوناً تمنع فيه إخراج الآثار مالم يكن لها مثيل فى البلاد .

ومنذ عامين تشكلت لجنة ألمانية أمريكية للبحث عن الآثار فى العراق ، وقد كان يرأس اللجنة الأستاذ كونيل Kuenel مدير الشعبة الاسلامية لمتحف برلين الحالى ، وذهب معه المهندس المعمارى (واخسموت wachsmuth) المعمارى الشهير فى مدينة ماربورغ فى ألمانيا ؛ ومن الأمريكان ذهب الأستاذ يوسف اوبتون Joseph opton المعاون فى الشعبة الاسلامية فى متحف مترو بوليتان Metropolitan فى نيـويورك . وقد وجدت اللجنة مساعدة كبيرة من الحكومة العراقية ، وتمكنت من اكتشاف آثار جمة فى فن البناء والزينات المنزلية القديمة ، ولايزال المدققون والمتخصصون فى الآثار وتاريخ الفن الجميل يشتغلون فى كشف ألغاز تلك الآثار وفهم طراز البناء الاسلامى القديم .

فعسى أن نعتبر بالسعى الحثيث الذى يبذله غيرنا فى معرفة وطننا ، فنبذل كل جهدنا لمعرفة حالنا ، ظاهرها وباطنها ، قديمها وحديثها ، ولا نكون أقل من الأوربيين فى معرفة أنفسنا وتاريخنا ومدنيتنا ، ونتدارك ما أضعنا فنجمع قوانا لنعيد مجداً مضى ومدنية اندثرت ، وما ذلك على شبابنا الناهض الفتى بعزيز .

محمد يحيى الهاشمى
مدرس اللغة العربية فى جامعة برلين

فى حانة خمار

[بين خمر الديان وخمر الدنان]

جمع مجلس للشراب فى حانة بعماد الدين جماعة من أهل الأدب ، من بينهم الأستاذ حسين شفيق المصرى ، ووفد عليهم الأستاذ محمود رمزى نظيم ـ وهو صوفى أقلع من زمان عن اللهو والشراب ، والتزم حانات صفاء الصوفيين ـ فشاء المجلس أن يفسد عليه التوبة ، فاتهمه بضعف الشاعرية إذا لم يقرع الكاس بالكاس ، وينزع منزعهم ويكرع من دنهم ، فقال : دونكم والمساجلة الارتجالية .

وانطلق شفيق ونظيم : الأول بلسان الكاس والطاس ، والثانى يرد عليه بلسان الصوفيين ، فيترجم عن حان الألحان فى صفاء الوجدان ، فانتهى ارتجالهما بهذه الخمرية الشائقة :

افصد الدن وهات   دمه فيـــه حياتى
واسقنيها فهى عندى   نزعة من نزعاتى
آه لو يدرى بما فيـ   ـها غواة الصالحات
فهى للأرواح نور   فى ظلام الشهوات
عصروها من كروم   مثمرات نضرات
وعناقيـــد تدلت   كالثريا زاهرات
قطفتها غانيـــات   كالنجوم الساطعات
وتولى عاصروها   نشر تلك النفحات
باكروها وهى بكر   وأتوها فى الغداة
بعد ما أشعل جمر الصـ   ـبح فحم الظلمـات
ذهّبوا منها كؤوساً   بطلاها حاليات
حُمّلت ذوب نضار   من شعاع الشمس آت

هاتها بين الندامى   والحسان الخفرات
وانثر الزهر علينا   بدرات بدرات
ذائب الياقوت هذا   فاق سحر الساحرات
يطرد الهم بعيداً   خلف ستر الغفلات
إنها الخمر فهات   فهى للحظ المواتى
شفة الكاس بها مثـ   ـل شفاه الغانيات
وترى راشفها يهـ   ـتز عند الرشفات
هزة الواجد قد فا   ز ببعض القبلات
يابنات الكرم إنّا   نحن عشاق البنات
فتعالين إلينا   فوق راحات السقاة
إنما أنتن أر   واح أرواح الحياة
كل شىء أنا ناسيـ   ـه سوى: خذها وهات
فأدرها واسقنيها   تحت عرش الثمرات
إنها الأنس متاحاً   فى صفاء اللحظات
أيها الناهى! رويداً   ياعدو الطيبات
إن فى الكأس وفى العو   د مثار النشوات
أنا لولاها لما فا   رقت ظل الحسرات
لا ولا كنت طروباً   إنها أحيت مواتى
كلما جدّت همومى   بددتها سكراتى
يا أخا كل غوى   إننا خير الغواة
هِمْ بها فى الحان واطرب   فى الليالى المقمرات

لا تبح بالسر هذا بين أحلاف الصلاة
إنما الخلد لقوم عملوا للباقيات
ليتنا متنا فرحنا من حياة لحياة
بين ولدان وحور رائحات غاديات
إنما نحن غصون وجناها للممات

حسين شفيق المصري محمود رمزي نظيم

حيـــاتي

لست أدري ولا إخال سأدري أين أو كيف أستطيب حياتي؟
أنهكتني الآمال فكراً وجهداً وهي دون المرموق في لحاتي
أستبين المأمول في ظلمة الغيـ ـب قويّ النهى سليم الأداة
فإذا نلته تبينت فيه غـير ما أبتغيـه من رغباتي
ربما كان ما أنال كما شئـ ـت وتشويهه من العارضات
فعجيب تناحر الناس للعيـ ـن وما طيبه لهم بالمواتي
وفجاء صروفه تتوالى أو وجاء تنسل في اللذات
إنهم فيه بين ماض دفين يبعث الحزن أو مغيب آت
ورغاب ما بين هذين كانت في مثار من الأسى مغفلات

عبد اللطيف ثابت

حكاية أبى القاسم البغدادى

بقلم الدكتور زكى مبارك

[من كتاب تحت الطبع يظهر قريباً بعنوان : النثر الفنى فى القرن الرابع]

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدى محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جداً فى المجموعات الأدبية ؛ ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس MEZ هدانا فى المقدمة الألمانية التى صدر بها طبعته لهذه الحكاية إلى أن الأزدى كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث ، فقد كان فى سنة ٣٠٦هـ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : « ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، فى الجانبين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، مايفوت حدود الوصف ، هذا سوى من كنا لانظفر بهم ولا نصل إليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ...[1] الخ » .

وفى مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبى محمد اليعقوبى وأبى الحسن بن سكرة[2] ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم إلى سنة ٣٩١ ، وثالثهم إلى سنة ٣٨٥ ؛ فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبى القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدى إلا فنوناً من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان ، فهى ليست قصة بالمعنى المعرف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن إلى فن فى دعابة وظرف ؛ و(أبو القاسم البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان ، فإنا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعباً متمرداً عارفاً بغرائب الخلاعة والمجون .

١) ص ٨٧ من حكاية (أبى القاسم البغدادى)
٢) ص ٨٨ « « « «

ولنعط الكلمة للمؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

« . . . بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام ، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى ، والشعر القديم العربى ، ثم الشوارد التى افترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء ، والنوادر التى اخترعتها أقراح المحدثين من أعيان الشعراء ، هذا الذى أحصله من أدب غيرى ، وأقتنيه وأتحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه ، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها ، ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم ، وكأنها قد نظمتهم فى صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب ، وتفاوت المنازل ، ولعلى صرت فى ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ فى فصل من كلامه : « وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لايغادر من ذلك شيئاً » ، وكذلك تكون حكايته للمغربى والخراسانى والأهوازى والسندى والزنجى ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طرفة فى كلام كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكى الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه لاتكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكى قد جمع ماهو مفترق فيهم ، وحضر جميع طرف حكايات العميان فى أعمى واحد ، ولقد كان فلان[1] يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا ينهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك كحركته لصوت هذا الحاكى وكأنه قد جمع جميع النغم التى تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير ، ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكى بفمه كل صوت ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، لأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان » .

وإذ قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن استيفاؤها واستغراقها فى مثل هذه المدة ، فمن نشط

---

(١) هو فى البيان والتبيين (أبو دبوبة الزنجى) ص ٣٩ ج ١

لسماعها ولم يعد تطويل فسولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيّرنى بها ، لاسيما مع انتهائه منها إلى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها ، وحلاوتها فى قصر متنها ، وحرارتها فى حسن منطقها)، كلفت له من البسط جهده المتعب على وغيره الممتع له [1] ثم إن لى قدمة شوط أستعيره وأستفيده من شعر أبى عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

ياسيدى دعوة مَن شعره يجرى على العادة والعرف

لابد أن يغفل عن لفظة طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة فى بغداد لعهده، وسياق الحكاية صريح فى أنه قصد إلى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف فى منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته إلى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة فى عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون وسيلة إلى طريف الألفاظ فى بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون فى المعاجم، وأبو المطهر يقصد إليها قصداً ، فهو رجل مثقف العقل يجرى فى درس اللغة على منهاج . من ذلك ما أنطق به المحدث :

— ياأبا القاسم ، تعرف شيئاً من السباحة ؟

فيجيب :

— ياأحمق ! ياسوادى لا يحسن أن يركب البقرة وتركى لايحسن أن ينزع القوس ! أنا والله اسبح من الضفدع ومن التنين . أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط ، أعرف منها الشق والزرع والغمر والاستلقاء والتراور والشكابى والطاووسى والعقربى والمقرفص والموزون والكامل والطويل والمقيد ، كان أستاذى فى جميعها ابن الطوا والزنابيرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملاً فى القواميس ، ولا نجد فى أهل زماننا من يعرف مالها من مدلول ، وقد تكون أسماء العوم فى أندية الرياضة المصرية مما يمت إلى لغات أجنبية ، ولا يقف أبو المطهر عند هذا بل ينطق المحدث بألفاظ الملاحين فيقول :

— ياأبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئاً من ألفاظ الملاحين وأحوالهم ، فيقول :

— : يحتاج أن تعرف ألوان المراكب فى السفن والسميريات ، والمراكب العاليات ، والزبازب

(١) فى هذه العبارة ركاكة وغموض .

والكندوريات ، والبالوع ، والطبطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والخيطيات ، والشلملي ، والجعفريات . (١)

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان حين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون ! ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان إذ يجد السالك محال كريهة الأسماء مثل : « موضع المجذومين » و « درب الصم » و « درب العمى » ، ويقول : « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن لا يحصى عدداً من الحذاق المعجزين ؟ » (٢) .

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة فى الدعابة ، من ذلك قوله فى وصف منافق : « ويقبل – خلال الأحاديث – على من يليه من اليمين فيفاوضه ويتسمع من أحاديثه ويستهش لها ويقول : ياسيدنا ! ذا والله ليس كلام البشر ، إنما هو سحر يوله القلوب والأسماع ، كلام والله كبرد الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ما هو إلا كالبشرى بالولد الكريم ، إلى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافى الزجاجة ، حلو المساغ ، يعافى به المريض ، ويجبر به المهيض ، يقود سامعه إلى السجود ، ويجرى مجرى الماء فى العود ، قد اتسع له بحمد الله مشرع الإطناب ، وانفرج عنه مسلك الإسهاب ، فهو منثر الدر على الدر .

فيقول الذى على يساره :

فى أى شىء أنتم ؟ فيغمز إليه بعينه ويقبل عليه ويقول :

ياسيدنا ! إنا فى محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، فى كلام أثقل من الجندل ، وأمر من الحنظل ، هذيان المحموم ، وسوداء المهموم ، لمثله يتسلى الأخرس عن كلمه ، ويفرح الأصم بصممه ، كلام والله يصدى الخاطر ، إن لم يعش الناظر ، كلام تتعثر الأسماع من حزونته ، وتتحير الأوهام من وعورته ، لا مساغ له فى الأسماع ، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت إلى اليمين فينشده صاحبه الذى يليه شعراً فيقول :

أعيذه بالله . ما أصفى نظره ، وأنقى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نحته ونجره (٣) ... لو جعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكاثراً ، وتجلى فيها مفاخراً ، شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذان والله تصير أصدافاً لهذا الدر !

ويلتفت عنه ثانياً إلى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة ، وتلك الإشارة

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) ص ٢٤ (٣) فى الاصل نحره بالحاء المهملة

الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة ، ليس إلا إقواء وإيطاء وأخطاء . لو شعر -أعزه الله- بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثاً ويأخذ فى تقريظه ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، الجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ماورث المحاسن عن كلالة ، ولا ظفر بها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها فى الماء وفرعها فى السماء ، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده ، ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفى العلم البحر الممد لسبعة أبحر ، كأنما يومه بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرتها عقل ، هذا بحمد الله مع خلق كنسيم الأنوار ، على صفحات الأشجار ، فى نفحات الأسحار ، خلائق فى ذكاء الخلوق ، وشمائل فى صفاء الشمول ، أذكى من حركات الريح بين الريحان ، جد كعلو[1] الجد ، وهزل كحديقة الورد ، سبحة ناسك ، وتفاحة فاتك ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وصحوها من الغضارة يمطر . ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيوف ، متبرقع والله ببديع الجمال ، متعوذ من عين الكمال ، متخلل مخائل الأمثال . أحلى والله من الوبل ، على المحل ، الخلق وضى ، والخلق رضى ، والفضل مضىء . محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير ، بل فى جنة وحرير .

ويلتفت إلى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث .

ذا والله سخنة عين عصارة لؤم ، فى فؤاده خبث ، كالكمأة لا أصل لها ثابت ، ولا فرع نابت ، لو قذف والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه ، لا يبض حجره ، ولا يثمر شجره ، حجة لا تروى ، وزند لا يورى ، قالب جهل مستور بثوب ، يعثر فى عنان جهله ، ويتساقط فى ذيول خرقه ، صخرة خلقاء لا تستجيب للمرتقى ، وحية صماء لا تسمع إلى الرقى ، كأنى إذا ناظرته أسفر منه عوداً ، وأهز طوداً ، ثقيل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة ، يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويمشى على العيون والأكباد ، هو والله فى العين قذاة ، وبين النعل والإخمص حصاة ، كأن وجهه على الحقيقة هول ، المطلع النحس يطلع من جبهته ، والخل يقطر من وجنته ، وجه يشق على العين ، وكلام لا يسوغ فى الأذن ، ما كنت أدرى والله أيحدث أم يحدث ، مدخل أكله أمذر[2] من مخرج ثقله ، لا يفرق والله بين محساه ومفساه ... الخ »[3] .

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم ، وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين ، والصورة عادية من حيث السياق ، فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا الوضع

١) فى الأصل « غلو » بالغين المعجمة (٢) أمذر : أخبث ، وبيضة مذرة فسدة (٣) راجع ص ١١٣ — ١١٠

البسيط،وهو التلون والتقلب ، والظهور بوجهين ، وتلك أظهر ما في شيم المنافقين .

وليس لأبى المطهر يد فى تلوين هذه الصورة فهى جملة من المحامد والمقابح جمعها من ألفاظ معاصريه، وكنا أشرنا فى النص الفرنسى إلى أنه اقتبسها من كتب الثعالبى ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبى هو الذى اعتمد على أبى المطهر فى نظم هذه الصور الفنية .

٥ ـ ومن هذا الباب ما كتبه فى وصف الثقيل :

« ياأول ليلة الغريب ، إذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ، يايوم الأربعاء فى آخر صفر ، يالقاء الكابوس فى وقت السحر ... ياخراجا بلا غلة ، ياسفراً مقروناً بعلة . ياأخلق من طيلسان ابن حرب ، ياأشأم على نفسه من ضرطة وهب . ياأبغض من قدح اللبلاب فى كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس فى وجه الغريم البغيض ، ياأنتن من الكنيف فى سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف . ياوجه المستخرج فى يوم السبت ، ياإفطار الصائم على الخبز البحت . ياأبرد من الشمال فى كانون ، وأوسخ من فراش الجرب المبطون . يا أقذر من ذباب على جعس رطب ، وأحقر من قملة فى أذن كلب ... ياأمذر من جفنة الدباغين ، وأنتن من ريح القصابين . ياأبلد من حضيض الحمام ، وأنتن من حانوت الحجام ، ياأقذر من طين السماكين ، ياأوحش من شخص الظالم فى عين المظلوم ، وأكره من صوت البوم ، إذا صك سمع المحموم ، ياأبرح من غم الدين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين . ياليلة المسافر ، فى كانون الآخر ، على آكاف بائس ، وبرد قارس ، ياأذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد . ياأثقل من طفيلى يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغذاء والعشاء ، ألوان الصيف فى الشتاء ، مجشما للساقى ، قاطماً على المغنى ، يواثب ويدنى [1] . ياأشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء المنقلب والإياب . ياأشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع إلى المغنى البارد . ياأكره من هجران الصديق ، ومن النظر إلى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ، وحسد الأقرباء ، وملازمة الغرماء [2] وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ، ومساءلة البخلاء ، ومعاداة الشعراء » .[3]

وقد أشرنا فى النص الفرنسى إلى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمى ، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقيل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ ، وأبو المطهر كان شاباً ماجناً فى سنة ٣٠٦ ، فمن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد انتصاف القرن الرابع . وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبى المطهر ، ورسالة الخوارزمى ،

(١) فى رسائل الخوارزمى (يزنى) (٢) فى الأصل الغرباء (٣) راجع ص ١٢٠

فوجدناها تتوافقان فى ألفاظ، وتختلفان فى ألفاظ، وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

« ياأنتن من الكنيف ، فى سحر الصيف » ، والخوازى يقول : « يا كنيف السجن فى الصيف » ، وهى عبارة أقذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جداً ، ولكن هيهات أن يصل إلى ماوصل أبو المطهر من الإفحاش والإقذاع ، فإنه نثر أهاجيه فى كتابه نثر الشوك ، وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد ، ونعيذ القارىء أن يدهش من ذلك ، فإن الحضارات تقتضى فنوناً من المناقب والمثالب لاتستطيعها البداوات . وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لا تعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنوانا على قوة الحضارة فى بغداد . وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة فى جفنة الدباغين ، وريح القصابين ، وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !.

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه فى وصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، ففى الفن الأول يقول :

« وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر ، فما ظنك بخرعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحة ، والفطنة مع الصباحة . . . قد أطر الغناء شاربها ، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم الدلال ألفاظها ، وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها ، واغتص بالبرنى مخلخلها ، وأطر ماء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها ، وتورد من صبغ الحياء خدها ، واهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها ، وارتجت من الشحم روادفها ، وتشربت أنوار الحسن سوالفها ، ثم أعيدت ساخطة على محبها ، وقد قطب التيه جبينها ، وشمخت النخوة بعرنينها ، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة ، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة ، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانة والخضوع ، وبلأكمامه بسوارب الدموع ، افترت مبتسمة عن شتيت الدر ، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الجوى والحر ، ثم أقبلت نرجستاها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى ، فترى والله حباب الدموع وخمر الخجل ، ونفساً تموت فتحييها بزاد من القبل ، وتجشمت بعد ذلك زيارته فى ملاءة من الظلام ، ووافته وهو سادر فى ساعة الأحلام ، وقد يرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجو منها بريا الراح العتيق ، انثنت متمايلة وقد بل البهر غلائلها ، وفتر الأين مفاصلها ، وأرعد الوجد فرائصها ، وغمز المشى أخمصها ، وجعلت تمتن عليه بالمامها

وتدعى فضل غرامها ، وتناسم من أحاديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى إلى نفسه ، من طول بقائها ، وبلوغ نمائها، تدوى بألحاظها ، وتداوى بألفاظها ، تروى بمقلتها ، وتحيي بقبلتها.. الخ الخ ». (ص ٧٦ ، ٧٧)

وفى الفن الثانى يقول :

« كم تشغلنى يا أبله ، وتسألنى عن الأباطيل ، وتقطع كلامى بما لا يفيدك ؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاماً نظيفاً غنج الحركات ، حلو الشمائل ، خنث الأعطاف ، بابلى الطرف ، ... يمشى بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خداه جلنار ، وعيناه نرجس ، وشاربه زمرد ، وشفتاه مرجان أو عقيق ، وثغره در، وريقه رحيق ، كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل .. . لو جذب عضو منه انقطر ، أرق من نسيم الهواء ، وألذ من الماء بعد الظمأ ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب خيزران ، أو طاقة آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم ، كأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن وجنته الجمر ، أو لون الراح ، وحمرة التفاح ، أحسن من نور زهر الربيع الباكر على الغصن الروى ، أحسن من الروض الممطور ، كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنى . . . كأن شاربه زئبر الخز الأخضر ، وعذاره طراز المسك الاذفر ، على الورد الأحمر . إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأنيق . . . كأن فمه حلقة خاتم ، وكأن ثغره البرد أو أقحوان تحت غمامة ، كأن فاه الجمر ، نبت فيه الدر، كأن عنقه إبريق فضة ، ... كأنما لبس بدنه قشور الدرة ، كأنه فضة قد مسها ذهب ، كأن بطنه قبطية ، وساقه بردية ، وقدمه لسان حية ، كأن وجهه الشمس ، وكأنه دارة القمر ، وكأنه المشترى ، وكأنه الزهرة ، وكأنه الدرة ، وكأنه الغمامة ، أطهر من الماء الزلال ، وألذ من معانقة الخيال ، وأزهر من النار ، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج ، . . كالظبى الغرير ، والقمر المنير ، والغصن النضير ، والمهاة على الغدير . . . الخ[1] » .

وهذه الصور أيضاً منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين ، فهى أوصاف حشرت حشراً ، ولم يتكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التميز بين ما نقله وما ابتدعه، وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

« كان إذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا ، فإنى ولدكم ، بل عبدكم، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف

(١) ص ٦٥ و ٦٦

مرة ، ومن أحبنى رياءً أحببته إخلاصاً ، ومن مات لى مت عليه. لم أبخل عليكم بحسنى و ظرفى؟ ولم أتعسر عليكم ؟ وإنما خلقت لكم ، ولم أتطاول عليكم ، وأنا غداً مضطر إليكم ؟ إذا بقل وجهى وتدلى سبالى ، وتولى جمالى ، وتكمش خدى ، وتعوج قدى . حاجتى والله إليكم غداً أشد من حاجتكم إلى اليوم. لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ... الخ[1] ».

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكايته ، أظهرها ماجاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ ، وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير إلى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها « أرق من دين أبى نواس [2] » !.

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان إذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، واستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لطمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

— ياأبا القاسم ! كل هذا يجرى لسماع غناء ؟

فيقول :

— « هذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لاتملك ، وغاية لاتدرك ، لأنه قل ما يخلو الانسان من صبوة أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى متمنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ، فالناس كأنهم على جدبلة واحدة فى هذه الحال » .[3]

٩ — وقد عرض لفكاهات البغداديين ونوادرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر فكاهات ماجنة لاتحسن روايتها فى هذا الفصل ، ولا بأس من إيراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : إن كنت تريد جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وإن كنت تريد جارية للمتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك .[4]

وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسيدى : مع ثلاث أخر ![5] أى إذا كان على الجنازة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهم ، وأوصاف سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم .

ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهى اللهو والمجون .

---

١) ص ٨٥ (٢) جاء فى ص ١٣٢ (نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ) ، و نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و « متابعة الابطال ، تترك الشيوخ كالاطفال » و (الابطال) محرفة ، والصواب (الارطال) ، و « يأخذ من تقلهم - ويضحك من عقلهم » و (تقلهم) محرفة ، والصواب (نقلهم).

٣) ص ٧٨ و ٧٩ (٤) ص ٧٥ (٥) ص ٧٦

وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعاً لأكثر المعانى الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخلاعة إلا ألم به ، وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ماروى من الشعر الماجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج النفس اليه فى ساعات الملال .

١٠ – وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسنة عوام المصريين ، كقول شاعر فى وصف ثقيل :

يا كل شىء وحش مهول يارأس خنزير ووجه غول[1]

والشاهد فى (شىء وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأوباشهم من بين صفعان إلى ضارط[2]

والشاهد فى (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب)

وقول أبى القاسم : « ياسفل العالم ! إذا أسكرتمونى فمن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره؟ » .[3]

وقول شاعر :

ويك ستى كامينى قبل أن أبصر مثله

وعوام المصريين يقولون : « فلان عليه حتة لسان » يعنون أن له لساناً طويلا ؛ أى ثرثاراً . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته .

١١ – وجملة القول أن كتاب أبى المطهر الأزدى سخيف ، ولكنه مع سخفه ظريف ؛ والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخ سخيف ولكن يأتى بسخف مليح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة الساسانية[4] ؛ وهى فى الشعر كحكاية أبى القاسم فى النثر ، كلتاهما تصف أخلاق الأوباش وتحكى ألفاظهم ؛ ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يعنيه أن يعرف ماأهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجنة تتفرد بألفاظ وتعابير تمثل ما فيها من شواذ الأخلاق . وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص ، كالذى يقع لأهل Belleville من أحياء باريس .

زكى مبارك

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٤ (٣) ص ١٢٦ (٤) تجد هذه القصيدة مشروحة فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ – ١٩٣

وجوه الإعجاز

بقلم الأستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم العليا

تكلمنا فى العدد الماضى عن إعجاز القرآن بعرض عام ، ووعدنا أن نتبعه بالكلام على «وجوه الإعجاز» ، وهانحن أولاء نفى بالوعد :

ليس بين العلماء خلاف فى أن العرب عجزوا أمام تحدى القرآن إياهم فلم يأتوا بشىء مثله ، ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز إلى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة ، ولا إلى قوة بلاغية فى القرآن أوقفوا أمامها خاسئين ، وإنما نسبه إلى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن يحاكوه صرفا ، وهذا هو القول بالصرفة المنسوب إلى النظام ، زعماً منه أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله ، لأن عجز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد من عجز العاجز لقصور فيه ، ولكن ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ، ولولا أنه النظام أحد شيوخ الكلاميين وأستاذ الجاحظ — وإن كان الجاحظ لم يرتض منه هذا القول على ماذكرناه — ماتعرض لنقده أحد من الباحثين ، وهذه أدلة الفساد إن كان فى حاجة إلى تدليل :

أولا : — لو كان عجز العرب بالصرفة ولم يكن القرآن نفسه معجزاً خلا من كل فضيلة له على غيره من الكلام ، ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التى تحول بينهم وبين أن يقولوا مثله ، ولا تزال فى صدورهم أفئدة لم تزلزل ، وفى أفواههم ألسنة لم تعقد ، فما بال ذلك لم يصدر عنهم وما بالهم كان الظاهر عليهم — وهم نقدة الكلام ، وصيارفة القول — العجب العاجب من فصاحة القرآن والدهشة الآخذة من بلاغته ، حتى كان الكثير منهم على عناده وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه ، وقد أثر فى ذلك الكثير وله أسلم الجم الغفير .

روى أن أعرابياً سمع قوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وروى أن آخر سمع قارئاً يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدته قبل إسلامه دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه فرق قلبه لما سمع وأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم من ساعته . وإنا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو ، فأتاه أبو جهل

فقال له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتى محمداً بقرض لما يقول، فقال: قدعلمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، فقال: وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذى يقول شيئا من هذا ،ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ،وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته ،قال : لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكر،فلما فكر قال: « هذا سحر يأثره عن غيره»، ذلك ماقال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمنت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون»؛ فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود، نعم ذلك ماقال بعد تفكير وتقدير وإصرار على مابه من جحد وعناد ، وهو يدل على مالم يقدر على إخفائه،فقد صرح فى حديثه أن مايقولون لايشبه شيئاً من هذا القرآن، ووصفه بما وصفه مما يدل على هذه المغايرة،وأخيراً كان حكمه عليه قوله فيه « هذا سحر يأثره عن غيره »، فجاء ذلك الحكم حاملا فى ثناياه أن القرآن قوة خارقة ، تنظر قريش إليها نظرتها إلى السحر، وكفى بهذا من المعاندين إذعاناً وتسليما.

ومادمنا قدسقنا هذا الحديث من عدو طاغ شهادة منه على الإعجاز والفضل ماشهدت به الأعداء فلنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهداً آخر فى الموضوع أيضاً،فقد جاء قصصه رائعاً معجزاً؛ قال سبحانه لنبيه وقد ساءه صلى الله عليه وسلم صد قريش للوليد أن يسلم، واستسلام الوليد لها فى رميه القرآن بالسحر، يؤسيه ويصبره ويهدد هذا المفتون ويزجره : « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد كلا ،إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ماسقر ، لاتبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر » .

فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويراً شمل أطرافه فى بلاغة وقوة أداء من بيان مكانة الوليد ومقدار ماشمله لذلك من غرور وجعله يقول مايقول ، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله له من سعير.

وثانياً:- لو كان إعجاز القرآن بالصرفة كما يقول النظام، وليس ذلك لفضيلة فيه، لزالت الصرفة بزوال زمن التحدى ولأصبح فى مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه فى ذاته من صفة الإعجاز، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون ؛ فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى

رجال النثر بغاية ما فى طوقهم من بيان، ومع هذا بقى بينهم وبين ما جاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد، فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الأول على أن معجزة الرسول العظمى باقية مابقى الزمان وأن لامعجزة له باقية سوى هذا القرآن .

ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعبيد الطريق إليهما لكل طالب لها راغب فيهما ، ولكن بدلا من أن يعين ماوضع لهما من قواعد ، وفصل من فصول رجال الكلام إلى أن يشبهوا فيما يقولون شيئاً من القرآن ، أراهم الشقة بعيدة عنهم ، والمحاولة مستحيلة عليهم، لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التى لاتحصى، وفضائله التى لا تستقصى ، حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجانى إلى تسمية ما ألفه فى هذا الباب « دلائل الإعجاز »، وليس بعد إقرار مثله إقرار ، ولا ينبئك مثل خبير، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

ومن العلماء من قال إن التحدى جاء فى كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين، ومن ثم وقع العجز لأنه محال أن يتهيأ لبشر فى صفة من هذه الصفات ماللهجل شأنه فيها، وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه ، فإن الكلام القديم قبل صوغه فى هذه الصورة التى بلغ بها، لامثل له ولا وقوف للعرب على كنهه ، فكيف يتحداهم بشىء غير معروف لهم ، والتكليف بغير المعروف لاتسيغه العقول ولا تقبله الأفهام ؟ فإن قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها ، قلنا إذن الإعجاز فى المعانى لا الألفاظ، وإذن يكون سائر الكتب المنزلة معجزة كالتوراة والإنجيل، لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم، وما قال بذلك إنسان ، ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئاً من هذا كما ذكر ورد القرآن .

على أن فى القرآن نفسه مايفهم أن التحدى كان يطلب إلى العرب الإتيان بمثل هذه الصورة اللفظية فى نظمها وتأليفها دون النظر لمعانيها، فإنهم حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم - كما حدث الجاحظ آنفاً -: أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا، ورموه بافتراء الكتاب على الله ، قال لهم: فهاتوها مفتريات كما هى الآية «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن الله لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »، ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا ، وفى ذلك دلالة كافية على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذى أنتج البيان الرائع ، وأتى بالسحر الحلال .

وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التنبؤ بالغيوب والكشف عما

فى الضمائر مصيباً فى ذلك كله الإصابة جميعها ؛ وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين ، مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار ؛ ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على الإعجاز ، لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تتنبأ صدقة ، ولاستحالة وقوفها على مثل ماجاء به قصص القرآن لخروج التنبؤ عن طوق البشر ؛ ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك له سبيل التحصيل ، فإنا لا نرتضى ذلك أيضاً دليلا على الإعجاز الذى يجب أن يكون للقرآن ، وإلا كان ماورد فى الكتب المنزلة قبله مميزاً عن غيب أو قاصاً لقصص ، وما أكثر هذا الأخير فيها معجزاً كذلك !

وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثلما ذكر القرآن الكريم ، وأنه لم يقل به إنسان ، كما سبق أيضاً أن رسول الله حين قالوا له : أنت تعرف من أحوال الأمم مالا نعرف ، ورموه بالافتراء ، قال : فهاتوها مفتريات ، وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا ، بل كان ماورد فى القرآن نفسه بعيداً عن التنبؤ والقصص — وهو معظمه — فاقداً صفة الإعجاز ، وفى مقدور العرب أن يحاكوه ؛ مع أن الإعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذى تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة ، كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد ينعقد الإجماع .

أما إذا أرادوا أن محمداً وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جعبة هذه الأخبار — وخاصة إذا لم يعرف عنه فى الحال الأولى سحر ولا كهانة ، ولا فى الثانية اتصال عن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار ؛ وأنه وهذا شأنه لا بد أن يكون صادقاً فى نسبة هذين إلى الله ، لأنه وحده المستأثر بعلم الغيوب ودون غيره الملم بتواريخ الأولين ، وبذلك تثبت نبوته ، وينسحب الصدق إلى سائر النواحى من القرآن — نقول أما إذا أرادوا هذا فإنا لا نقبله دليلا على الإعجاز أيضاً بالمعنى المراد ، لأنه ينتهى بنا إلى ما انتهى إليه الأمر الأول ، إذ كل ما بينهما من فارق أنا اتخذنا فى الأول عجز العرب ، وفى الثانى عجز محمد دليلا على أن بعض الكتاب يحتم عن طريق معناه أنه من عند الله ، وبذلك تثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب ، ولكنا لا نزال على هذا وعلى ذاك بعيدين عن إثبات الإعجاز للقرآن إثباتاً ينال جميعه بالذات لا بعضه بالنظر إلى معناه ، ثم يأتى على سائره كما تقدم بطريق الاستنباط .

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التى لم نرتضها دليلا على الإعجاز ، ومن قولنا فيها يظهر أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلا ، أما الثالث فمع عدم نهوضه وحده دليلا على إعجاز الآيات لذات الآيات صالح أن يساق حجة للإعجاز ، ولكن على النحو الذى بيناه ، ولهذا لا يفوتنا أن نذكر شيئاً عن القصص والنبوءات ، أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب

فيه ، فلندع التمثيل له الآن إلى حيث يأتي ذكر الأغراض ، ولنكشف هنا ببعض ماورد فيه من الآيات المفهمة استحالته على رسول الله ، ولم يكن من عند الله ، والموضحة مدخله إلى الإعجاز: قال تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» ، وقال: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين» وقال أيضاً: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» ، وقال والقول في هذا الباب كثير: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» .

وأما النبوءات فعلى قلتها في القرآن أدل من القصص على الإعجاز بالنهج الذي نهجناه ، وهذا شطر منها حيث لاعودة إليها فيما سيأتي من كلام ، قال الله تعالى : «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» ، وقد غلبوا في هذا البضع ، وقال : «لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون» ، فدخلوا كما قال ، وقال في قصة بدر : «سيهزم الجمع ويولون الدبر» كما قال فيها «إن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» فصدق في ذلك كما صدق في إخباره عما في نفوسهم من ودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، ومن تحقيق ما أراده هو من أنها لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تنبؤه عما في الضمائر .

ومنه أيضاً قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه في إحدى الغزوات «ولن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً» ، فإنهم لم يخرجوا معه بعد ، وكذا قوله لليهود : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» ، فما تمناه أحد منهم تحقيقاً لقوله بعد «ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون» .

لهذا ذكر الباقلاني في كتاب «إعجاز القرآن» عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه من الإعجاز : جعل أولها الاخبار عن الغيوب ، وثانيهما الاخبار عن قصص الأولين ، وثالثهما ما أن نشرع فيه ، رضيين اياه الوجه الحق للإعجاز ، فقد قال : «والوجه الثالث أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى المدى الذي يعلم عجز الخلق عنه» ، وهو مانريد ، ولكن على خلاف معه في التفاصيل : ؟

السباعي السباعي بيومي

الرجوع الى ميتوزيلا

لبرنارد شو

فى البداية

ميتوزيلا بطريق يقال إنه عمر طويلا حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد ، فالرجوع إليه هو الرجوع بالانسان إلى الحياة الطويلة ، والحكمة فى ذلك هى ماتدور عليه القصة بما سيعلمه القارىء بعد حين ، والمؤلف يرمى إلى تأريخ التطور الخالق creative evolution فيبدأ بقصة آدم وحواء واستغل تلك الأمنية الأبدية « حجر الفلاسفة » الذى يغلب الناس على غائلة الموت. والقصة فوق ذلك معرض تمثل فيه نقائص الحياة المتمدينة ، وخاصة الجانب السياسى منها.

***

نحن فى ناحية من جنة عدن ، يجلس فيها آدم وحواء ، وعلى مقربة منهما تسكن حية مختفية الرأس ، وأيل مكسور الرقبة ، وقد جذب الأيل أنظار آدم وحواء بسكونه المستمر ومنظره المقبض ، مما أثار فى نفس الرجل الخوف أن تزل قدمه مرة فتندك رقبته وينقطع حبل حياته، وتحس حواء ببعض مايجد ، ويشفق كل منهما أن يهجره رفيقه تلك الهجرة الأبدية ، ويتركه لوحدة ليس فيها أنيس ، ولكن حواء تعجب من خوف آدم هذا لأنه يتردد دائماً بين الضجر من الخلود والخوف من الموت ! ويهم آدم بالأيل ويذهب به بعيداً ليرمى به فى النهر ، وفى أثناء غيابه تتحرك الحية وتتحدث إلى حواء بلغتها ، لأن طول إصغائها إلى حوارها مع آدم أفضى بها إلى تعلم اللغة التى يتكلمان،وهى تحدثها لما ترى من شدة خوفها من الموت ، وتكلمها عن دواء الموت وهو الميلاد وبعث الحياة من جديد، وتضرب لها مثلا بنفسها فهى تلد حيات جدد، وهذا مافعلته ليليث عند ما آلمتها فكرة الموت فولدت آدم وحواء ! ، والخلق ليس محالا، فقط يجب أن ترغب وتتخيل ثم تريد فتخلق ، ولم لا ؟ ألم تكن حواء عاجزة عن تسلق الأشجار؟ ألم ترغب وتتخيل وتريد فخلقت من العضلات والاستعدادات مامكنها من تسلق الأشجار ؟ هكذا الخلق بممارسة واجتهاد . . . ولا يجوز لحواء أن تتردد إذا كانت تريد أن تتغلب على الموت ورعبه . وإذا مارجع آدم هرعت إليه حواء وأفضت إليه بكل مادار بينها وبين الحية، ويسر الرجل لذلك ، إلا أن خوفا يداخله أن يقتله من سوف يلد من أحياء ، ولكنه يجد فى

نفسه إطمئناناً غريباً،ويخيل إليه أن صوتاً يوحى إليه بأن لن يصيبه أذى ممن سيلد، ويصرح لحواء بأنه نفس الصوت الذى يبغضه فى فكرة قتلها، وهنا تقول له :

حواء « إن الصوت يهمس لى بقتلك ومع ذلك فلا أرغب أن تموت قبلى ، ولا حاجة لى بصوت يأمرنى بذلك » . فيقول آدم : « كلا ... ذلك بين من غير صوت ما،لأن هنالك شيئاً يربطنا ببعضنا . . شيء ليس له كلمة . . . . »

الحية « الحب . . . الحب . . . الحب »

آدم « إنها الكلمة قصيرة لمثل هذا الشيء الطويل ؟ »

الحية « الحب قد يكون كلمة طويلة لشيء قصير . . ولكنه إذا كان قصيراً كان حلواً ».

آدم « إنك تحيريننى، كان اضطرابى القديم ثقيلا ، ولكنه كان بسيطاً ، وهذه البدائع التى توعدين قد تقلب كيانى قبل أن تمنحنى هدية الموت ، كنت أنوء بحمل المخلوق الخالد، ولكن لم أك مهتاج العقل، وإذا كنت لم أعلم أنى أحب حواء فلم أكن أعرف كذلك أنها يمكن أن تزهد فى حبى وتحب آدم آخر ، أو أن ترغب فى موتى . . .هل تعرفين اسما لهذه الحالة ؟ ».

الحية « الغيرة ... الغيرة . . . الغيرة »

آدم « كيف لا أثابر على الهم مادام المستقبل أضحى غير مؤكد ؟ إن أى شىء خير من الشك ، فالحياة أصبحت غير يقينية والحب غير يقينى ، فهل لديك كلمة لهذا الشقاء الجديد ؟ »

الحية « الخوف . . . الخوف . . . الخوف » . فيقول آدم : « هل عندك علاج له ؟ » . فتقول « نعم . . . الأمل . . . الأمل . . . الأمل » فيسأل « وما الأمل ؟ » ، فتقول : « مادمت لا تعرف المستقبل فإنك لا تعرف أنه لن يكون أسعد من الماضى . . هذا هو الأمل » .

آدم « إنه لا يعزينى أن الخوف عندى أقوى من الأمل ، ينبغى أن أظفر باليقين . . هبيه لى أو أقتلك إذا ماظفرت بك نائمة » فتقول حواء « حيتى الجميلة ! . . كلا ! . . كيف تفكر فى مثل هذا الأمر المروع ؟ » فتقول الحية (لآدم) : « قيد المستقبل بإرادتك وانذر نذراً » ، فيسأل آدم « وما النذر ؟ » فتجيب الحية « اختر يوماً لموتك، واعزم أن تموت فى ذلك اليوم، فلا يبقى الموت غير يقينى ، ودع حواء تنذر أن تحبك حتى تموت فلا يبقى الحب بين مخالب الشك »

آدم « هذا جميل » ، فتستدرك حواء « ولكنه سوف يقضى على الأمل ! » فيقول آدم (مغضباً) « صه . . يا امرأة . . إن الأمل شرير والسعادة شريرة . . اليقين هو السعادة »

الحية « وما الشرير ؟ » فيجيبها آدم : « كل ما أخاف أن أفعل شريراً ، اصغ إلى ياحواء، واصغ أيتها الحية واشهدا نذرى : سأعيش ألف دورة فلكية » .

الحية « ألف سنة ؟ ألف سنة ؟ » ، فيردد آدم « نعم سأعيش ألف ولن سنة أبقى بعد ذلك، ولسوف

موت وأفوز بالراحة ، ولسوف أحب حواء كل هذا الزمن دون سواها» فتقول حواء « وإذا وفى آدم بنذره فلن أحب رجلا سواه ».

وتهتف الحية أنهما اخترعا الزواج ، ثم تنتحي بحواء ناحية لتفضى إليها بسر هذا الزواج ، وتهمس فى أذنها بكلام فيتهلل وجهها فرحاً ، ثم يعتريه الامتعاض فتخفيه بين يديها .

***

تقضت قرون ، وقد هبط آدم من عدن وعاش مع حواء ، وها هو ذا يحفر وها هى ذى تغزل ، ولم يظلا كما كانا حافظين لثوب الفتوة جديداً ، وإنما خضعا لسلطان الزمان الذى سلبهما رونق الشباب ومكن منهما الكبر . ولأول مرة يظهر بجانبهما آدمى جديد هو هابيل ، وهو متلفع برداء الحرب مزهو بغرور المحاربين ، ولا يكلفنا أى جهد أن نلحظ ما بين الأب والابن من سوء تفاهم وغضب ظاهر ، وذنب الابن أنه قتل أخاه قابيل ، ولكنه يعتذر عن نفسه بأن أخاه هو الذى اخترع النار والقتل وأنه قضى عليه بما كان يقضى به على غيره ، وهو على كل حال لا يبتئس لذلك بل يفخر به ، لأن حياته فى نظره أحفل بمعانى العظمة من حياة أبيه . وماذا فى حياة آدم غير الحفر ؟ وهو يستطيع أن يفخر بالحفر إن جاز له أن يفخر بأنه خلق رجلا ! أما هو فيستطيع أن يزهو لأنه القاتل الأول ، وحياة القاتل حياة قوة وحرية !

ولا يروق حواء حديث ابنها ، وتخشى على آدم أن يتأثر به ، فتنحى على ابنها باللوم أن يفخر بما لا يستحق الفخر أو الثناء ، وتنكر عليه أن يزعم لنفسه ما ليس لها من الحرية والقوة فهو أسير امرأته ، يساق إلى مقاتلة الحيوان بوحى صامت منها ، لأنه يذوق السعادة فى تلك الساعة التى ترمى بصيده تحت قدميها مزهواً أمامها بقوته وجبروته ، وهو بعد هذا وذاك ليس إلا مخرباً ، ولو أنه ذاق العذاب مثلها والجهد فى سبيل الإنتاج والبناء ما استقام منطقه بمثل هذا التفكير الطائش . ولكن الفتى لا يهتز لكلام أمه وما يزال يصر على إيثار أسلوب حياته والزراية بحياة أبيه . فإذا نظر أبوه إلى الأرض وأقر بأنها أصل الحياة تطلع هو إلى السماء وقال إن الأرض أصل الأمراض كذلك . وتشتد ثورته على الأرض وما فيها من طعام وتناسل ، ويتساءل : إذا كان هذا هو كل ما للإنسان ، فما الفرق بينه وبين الدب ؟ ويشتد سخط الأب ويتغالى الابن فى كبريائه حتى تهدد حالتهما بالخطر مما يدعو حواء إلى التدخل فيما بينهما لتهدىء من ثائرتهما وتلطف من حرارتهما ، حتى إذا رأتهما جنحا إلى السكون اعترفت لهما بأنها غير راضية عن حياة آدم ، وغير راضية عن حياة هابيل ، تلك تضجرها عافيها من لون واحد وحركة واحدة ، وهذه تنفرها بما فيها من وحشية وخراب . وإنما الذى يعزيها ويهون عليها هو الأمل فى المستقبل ، وقد بدأت تتلمس بوادر حسنة تبشر بالسعادة وهى التى تتحقق على أيدى بعض أبنائها ، فمنهم من يسرح بنظره بين الكواكب يطلق عليها الأسماء ويلاحظ حركاتها ، ومنهم من صنع لها هذا المغزل العجيب ، ومنهم من يهيم فى الغابة صائخاً

إلى « الصوت » يستلهمه أموراً يهدى بها إخوانه ... وهؤلاء هم أملها فى المستقبل الذين يبنون ويبتكرون من غير أن تسحرهم السكينة ولا تغرر بهم حمية القتال . والظاهر أن هابيل لا يفهم هذا الكلام فيأخذ عدده ويخرج، ويستأنف آدم الحفر وتجلس هى تغزل وهى تقول :

« الإنسان لا يحتاج دائماً أن يعيش بالخبز فقط ، يوجد شىء آخر لا ندرى إلى الآن ما هو، ولكنا سنكشف عنه فى يوم من الأيام ، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو النزاع أو القتال »

***

نحن الآن بعد الحرب الكبرى ، فى غرفة ببيت فرانكلن بارناباس — وهو رجل من رجال الدين سابقاً — وأخيه كونراد بارناباس وهو عالم بيولوجى ، والأخوان من الرجال الموهوبين الذين يعيشون للإنسانية ، وهما متفقان على أن الحياة البشرية قصيرة بحيث لا تحقق للإنسان ما يطلب من الحكمة والعرفان ؛ ولقد هجر فرانكلن الكنيسة لما رأى أن بينه وبين الحكمة مائة وخمسين عاما. أما كونراد فيتمنى لو يعمر تسعمائة وستين عاما كأبطريق ميتوزيلا ليبلغ مرتبة العلم الحقيقى.

وبينما نستمع لحوارهما يدخل القس هاسلام وتتبعه ابنة خطيبته فرانكلن سافى ، ولا يكاد يستقر بهما المقام حتى يدخل شخص ثالث هو مستر بيرج وهو من الشخصيات السياسية البارزة وحسبك دلالة على سمو قدره أنه ترأس الوزارة البريطانية أثناء الحرب، وأنه الآن زعيم المعارضة وهو لم يحضر لخالص الزيارة ولكنه يرمى إلى غرض سياسى ؛ ذلك أنه علم أن مستر فرانكلن ينوى القيام برحلة، فهل تكون الرحلة لغرض سياسى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون الأستاذ ممن يزكونه أم ممن يناهضونه ؟ لأن الحالة حرجة والشعب غير راض عن الوزارة القائمة التى لا تمثل أحداً فيه ، ولكن فرانكلن لا ينوى القيام بدعاية سياسية مطلقاً وهو لم يفكر فى السياسة أبداً ، لأنها — على ما هى عليه — لا تستطيع أن تجذبه إليها ؛ وهو يصرح لمستر بيرج عن رأيه فى أساليبهم وانتخاباتهم التى يراها مهازل مضحكة لا تغنى شيئاً .

وأثناء الحديث تدخل الخادم معلنة قدوم مستر لابن ، وهو رئيس بيرج القديم ورئيس الوزارة قبل الحرب ، وبين الرجلين منافسة حادة وخصومة مكتومة واحتقار متبادل. ويتحدث الجميع فى السياسة، وهل فى أدمغة رجال السياسة موضوع عدا السياسة ؟ كأنما الدنيا لم تخلق إلا لتكون ميداناً لانتخاباتهم، وكأنما الناس لا يوجدون إلا لتزكيتهم وتسليمهم مقاليد الحكم ؛ وأخيراً تضيق سافى بالحديث وتسخط عليه، وتقترح على أبيها وعمها أن يبلغا السياسيين إنجيلهما الجديد.

ويراع الرجلان ظناً منهما أن الشقيقين ينويان تكوين حزب سياسى جديد يزحم عليهما الميدان، ولكن كونراد يؤكد لهما أن فكرة كهذه لا تمكن أن تخالطها نفساً ، فما عسى أن يكون هذا الإنجيل إذاً ؟ هنا يقول فرانكلين « برنامجنا هو أن تمتد نهاية الحياة الإنسانية إلى ثلثمائة عام » ، وتقول سافى : « إن نداءنا فى الانتخابات هو الرجوع إلى ميتوزيلا » ، ولكن ما شأن ذلك والسياسة

هنالك يأخذ فرانكلين في شرح كتابه أو إنجيله قائلاً إن رجال السياسة يموتون ولما يبلغوا سن الرشد، يموتون وقبس من النور يوشك أن يشرق على نفوسهم المظلمة، فيجب أن تمتد بهم الحياة ليبلغوا الحكمة ويفيدوا من تجارب القرون! ولما يسمع مستر لابن هذا الكلام يوافق عليه، ولكنه لا يرى فائدة عملية من الخوض فيه، فقد نستطيع أن نمسك الطيور بأيدينا لو تنطبق سماء على الأرض، ويسأل لابن كونراد: هل اهتدى إلى أكسير الحياة؟ هل يقدم لها طعاماً أو سقيهما شراباً؟ فيأسف العالم لأنه يحدثهما في العلم فيقبلان عليه بأفواه مفتوحة وعيون مغمضة، ولكن لابن لا يثق بالعلم كثيراً ويستشهد بخطأ العلماء المتكرر، وربما كانت ثقته بالشعر أعظم، ويجد من فرانكلين موافقة على كلامه، ويضرب هذا مثلا على صدق الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول «حسناً، أنت تذكر أنه في جنة عدن لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعي – كما نسميه الآن – لم يكن جزءاً من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها ومنفصل تماماً منها»؛ ولما يعترض لابن بأن الموت غير الطبيعي كان موجوداً يستطرد فرانكلين قائلاً: «نعم، كان آدم وحواء معلقين بين قدرين مخيفين: انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في حياة أبدية، ولما لم يطيقا واحداً منهما قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة أمدها ألف عام ومن ثم يعهدان بعملهما إلى زوج جديد، فاخترعا الميلاد الطبيعي والموت الطبيعي اللذين هما من الظاهر استمرار الحياة من غير أن يزحزح مخلوق تحت وطأة الخلود».

فالحياة خالدة ولو فنى الأفراد، ونحن صورها المتكررة، وهي تسير في سبيل القوة والعرفان غير المحدودين، واللذين يجب أن يظلا غير محدودين ليسوغا لنا الحياة. ويسأل لابن عن أصل الخطيئة، فيجيبه فرانكلين قائلا إن آدم كان يعيش في عدن آمناً من الموت فكانت بيئته الأبدى، وكان لذلك يوجه جل عنايته إلى المحافظة عليها والاهتمام بشأنها؛ فلما اخترع الموت الطبيعي وأضحى مستأجراً للبيت لا صاحبه فترت عنايته به، وتجرأ على ضرب حواء بعد أن كان يشفق أن يصيبها بسوء فيبقى وحيداً لا أنيس له، ولما جاء أبناؤه ساروا على سنته وزادوا عليها، فكان القتل وكان الصراع وكان الشقاء ... هذه هي قصة عدن ولك أن تسميها التطور الخالق إن كنت من المغرمين بالأسماء العلمية؛ وليس التطور ظاهرة عارضة مخلفة قوة؛ نحن تجربة في يدها، فإن بشرنا بنجاح أبقتنا، وإن رأت أننا تجربة فاشلة قضت علينا وابتدعت غيرنا.. وكم من مخلوقات انقرضت ولم تترك إلا آثارها على الأحجار القديمة.

كل هذا طيب ولكن كيف السبيل إلى العيش ثلثمائة عام؟ هل هنالك أكسير أو نحوه؟ الحق انه لا يوجد أكسير ولا غيره، وكل ما في الأمر – كما يقول فرانكلين – أننا نستطيع أن نبث في عقول الناس أنه لا يوجد شيء يمنع من ذلك – طول العمر – إلا إرادتهم أن يموتوا قبل أن يشارف عملهم التمام، وإلا جهلهم بالعمل العظيم المتروك لهم أمر القيام به.

ويخيب أمل لابن وبيرج، لأن عقليتهما لا تقتنع إلا بالأمور المادية، أما الرغبة والاقتناع النفسى فأمر آخر! أليس كلنا نرغب أن نعمر ثلثمائة عام ومع ذلك لايتاح لنا أن نتجاوز العمر المحدود؟ ولكن كونراد لايرى ذلك وهو يقول مدللا «كل يود لو يحصل على مليون جنيه فلماذا لا يحصل عليها؟ لأن الذى يتمنى أن يكون مليونيرا لايحرص على توفير ستة بنسات ولو هدده الموت جوعاً وانتصب محلقاً فى وجهه، والذين يرغبون أن يخلدوا لايحاولون أن يقلعوا عن شرب البيرة أو تدخين التبغ، وهم يعتقدون أن الممتنع عن المسكرات والتدخين يعيش أجلا أطول، مثل هذه الرغبة لا تتجاوز عتبة الإرادة، انظر إليهم كما يعتقدون أنه يجب عليهم أن يفعلوا».

لكن لابن عسير عليه أن يفهم هذا الكلام، وهو يائس من أن يطول عمره، وبرج يعد بأن يجعل من هذه المسألة أساساً لمعركة انتخابية، وهاسلام لا يصدق شيئاً من هذا، حتى خطيبته سافى تشك فيه شكاً قويا لما ترى أنه من المحتمل أن تعمر الخادم وترجع إلى متيوزيلا. أما الشقيقان فلا يخالطهما شك فى الموضوع. لكن هل يعمر أحد منهما أم لا؟ هذا مالا يعلمه أحد.

***

نحن فى عام ٢١٦٠م فى انجلترا أيضاً وفى غرفة رئيس الوزارة وهو يجمع فى هيئته مابين مستر بيرج ومستر لابن، ونحن نحس تقدماً فى الحضارة الميكانيكية، فالوزير يتحدث إلى وزيرة الصحة بالتليفون وهى على بعد أميال عديدة، ويستطيع أن يراها ويرى المكان الذى تحل فيه كأنها على بعد أشبار منه، ويأخذنا عجب شديد أن نرى أزمة المصالح الحكومية فى أيدى الأجانب، فوزيرة الصحة زنجية من أفريقية، ورئيس السكرتيرين الدائم من الصين «كونفوشيوس»، وسبب ذلك كما يقول كونفوشيوس أن الانجليز بعد حرب طاحنة اقتنعوا بأنهم ليسوا أهلا لحكم أنفسهم فسلموا أمورهم للغرباء وانتظمت بذلك آلة الحكومة وتفرغت للتفكير فى السياسة العليا.

يدخل على الرئيس موظف إنجليزى كبير الشبه بكونراد بارناباس، يبدو عليه الاضطراب وتصدر عنه حركات عنيفة، وكان الرئيس قد أرسله بدلا منه ليقابل مخترعاً أمريكياً اخترع آلة للتنفس تحت الماء، ورأت الحكومة أن تعرض على الأمريكى شريطاً سينمائياً يمثل العظماء الذين ماتوا غرقاً. وشاهد بارناباس من هؤلاء العظماء المنكوبين: الأسقف ستيكيت والوزير ديكنسن والجنرال باليبوى، وتحقق منهم بعين فاحصة، ولشد ما كانت دهشته عظيمة عند ما تبين له أن هؤلاء الأشخاص ورئيس أساقفة يورك الحالى شخص واحد بعينه، نعم ليس الذى بينهم مشابهة قوية، وإنما هى ذاتية واحدة، ويدهش لحديث الموظف رئيس الوزراء ورئيس السكرتيرين وتزيد دهشتهم عند ما يدخل عليهم رئيس أساقفة يورك. وهو كبير الشبه جداً بالقس هاسلام خطيب سافى الذى عرفناه من قرنين، ولا يستقر به المقام حتى يحمل عليه بارناباس متهما إياه بالسرقة، لأنه ما زال يقبض من مال الدولة من بعد فوات السن القانونية للعمل، وهو حوالى الأربعين، ويرى الأسقف نفسه مطالباً بتبديد الغيوم التى تكتنف الأمر، فيقص عليهم قصة

يدعى بطولتها فتكاد تصعقهم من شدة ماتدهشهم ... يقول إنه تزوج فى عام ١٩٢٤ من ابنة فرنكلين الذى ينحدر بارناباس الحالى من أسرته ، وإنه قرأ كتاباً لعم زوجه يبشر فيه للإنسان بحياة طولها ثلثمائة عام ، لأن حياته الطبيعية لا تؤهله للقيام بواجبه نحو المدينة ، وإنه لم يستطع أن يصدق هذه الدعوى الخارقة ، وعاش مع زوجه وتقضت الأيام سراعا ووضح فعلها على وجه زوجه التى مضى من عمرها نجره وضحاه وطلع أصيله ، وهو باق على حال شبابه حتى لاحظت عليه ذلك امرأته وضاحكته قائلة إنه سيعمر ثلثمائة عام ، ومضت الأيام وماتت زوجه ولم يتغير منه شىء ؛ فوقر فى نفسه أنه سيعمر حقاً ، وكان كلما عاش عمراً وعرفت له شخصية تخلص منها وتقمص شخصية جديدة ، وكانت السبيل إلى ذلك أن يذهب إلى شاطىء البحر ويترك ملابسه ويرحل إلى بلد شاحط فيظن الناس أنه غرق ، وبهذه الطريقة كان أسقفاً مرات ، وتقلد منصب الرئاسة مرة وترأس الجيش مرة ؛ وهو الآن بالغ من العمر قرنين ونصف قرن !! فإذا انتهى هاسلام من حكايته ، استسلم كل من الحاضرين لعواطف شتى ؛ فبارناباس لايصدق ، وبيرج لابن يشك شكاً قويا ، وكونفوشيوس يفكر ويفكر لعله يهتدى إلى نور اليقين وسط هذا الظلام الحالك .

وبيناهم على تلك الحال من التكذيب والشك تدخل وزيرة لمقابلة رئيس الوزراء فى أمر من أمور الدولة ، وهى امرأة مهيبة – رغم حداثة تكسوها – ولا تكاد تلتقى عيناها بعينى الأسقف هاسلام حتى تعتريها دهشة وتعتريه دهشة مثلها ، ويصرح لها بأنه يتذكر أنه رآها فى مكان وزمان تأبى الذاكرة أن تدله عليهما ، وكل ما يذكره أنها كانت تفتح له باباً وتنحنى له ، وتعجب الوزيرة لأنها هى الأخرى يخيل إليها أنها كانت تستقبله حقاً وتفتح له باباً كذلك ، ولكن أين ومتى ؟ .

ويسأل كونفوشيوس الأسقف : هل يعرف أحداً غيره امتد به العمر إلى هذا الحد ؟ ولكن الآخر لايدرى من هذا الأمر شيئاً ، وقد أخفاه عن العالمين لعلمه أن الناس كالحيوانات يؤذون من ليس على شاكلتهم ؛ وهنا تتذكر الوزيرة الأسقف وتعترف له بأنها خادم خطيبته سافى التى كانت تستقبله فى بيت بارناباس عام ١٩٢٤ ! ، وتقص عليه كيف أنها قرأت كتاب بارناباس وكيف تأثرت به تأثراً لايتاح إلا للجاهلات ؛ وقد تزوجت ولاقت حياة عسيرة شاقة لم تذق فيها حلاوة الحياة ولا الراحة ثم مات زوجها ؛ ويدهشها أن تبقى بعده – وبعد فوات تلك الأعوام – محافظة على شبابها ووميعة صباها ؛ ثم وقفت على ماهنالك من أنها ستعمر كما قرأت فى كتاب بارناباس ، وقد راعها الأمر لأنها لم تحتمل الحياة وهى قصيرة ، فكيف تصبر عليها ثلثمائة عام ؟ ولكن عزاها وشدد عزيمتها تقدم مطرد ساير الحياة السياسية والاجتماعية بماجعلها تحيا لنفسها حتى تبوأت مقعداً فى الوزارة ! .

ويلقى بيرج لابن عليها نظرات قلقة ، وقد أذهلته الحقيقة ويتجرأ فيسألها : لم لاتتزوج ؟ وتجيبه بأنها تزوجت من زمن فناناً فى الثمانين وعاشرته زمنا ، ومات الرجل ولما يبدع إبداعاً حقا ، مات فى اللحظة التى تفتحت له فيها أبواب السماء ! فيسألها ثانياً : لم لاتتزوج مرة أخرى

وهي في هذه السن ؟ ألأنها لاترضى أن تعبث بطفولة واحد مثله في الثمانين ، وهل تراه يرضى وهو في هذه السن أن يتزوج من فتاة في الثانية عشرة ؟ ويدور بين الأسقف والوزيرة حديث رائع عن الحياة الانجليزية يتناولانها فيه بالنقد المر ، فالانجليز يجزعون أمام الأعمال الهامة ويتركونها للزنوج والصينيين، ولعله لا يكون بعيداً أن يأتي يوم يصبح الانجليز فيه خدما في بلادهم ! ويلاحظان أن العقول الصفراء والسوداء والسمراء هي التي تبتدع الآن وتبتكر كما كانت تفعل قديمـا العقول الاسكوتلاندية والألمانية واليهودية والايطالية ، وحسب الانجليز الآن أن يلعبوا الجولف وغيره من الألعاب الصبيانية ؛ وطبيعي أن ينجذب كل من الأسقف والوزيرة إلى بعضهما ، ويهمان بالخروج وفي نية كل منهما أن يتزوج من صاحبه ، ويحدس بارناباس هذه النية فيعترضهما، ولكنهما يخرجان رغما منه ؛ ويقترح هو أن يقتلا ولو دعا الأمر إلى سن تشريع تحرم فيه الحياة على المعمرين ... أليس من الممكن أن يلدا أطفالا مثلهما وأن ينتشر هذا النسل فيضحون هم أطفالا بجانبهم ؟ أليس من المحتمل أن تمتد قاماتهم بحيث تناسب أعمارهم فيمسون بجانبهم أقزاماً ؟

ويستمع كونفوشيوس إلى حديث بارناباس ولكنه لايقتنع به ولا يرى فيه وجهاً للحق ، فيحتد بارناباس ويخرج غاضباً ، ويقبل الصيني على رئيس الوزراء محدثاً قائلا : إن الانجليز يستطيعون أن يبلغوا الحكمة لو بلغوا سن الرشد ولا سبيل إلى ذلك ماداموا يموتون أطفالا ، ويسخر من ادعائهم أنهم وجدوا ليكونوا السادة، وليسيطروا على قيادة الشعوب ، ويشبهه بادعاء الطفل الغرير وتيهه على اللعبة الخشبية التي يعبث بها ، ويتساءل الرجل : هل يوجد ياترى أناس آخرون على شاكلة الأسقف والوزيرة؟ من يدري؟ بل من يدري أنهما ليسا من هؤلاء المعمرين؟

وبينما هما يتحدثان تدعو وزيرة الصحة الزنجية رئيس الوزراء للنزهة يهبط فيها بالباراشوت في خليج فنشجورد ، فيتردد على غير عادته إذا دعته هذه المرأة . كانت الحياة قصيرة زائلة وكان يستعين بها ، ولا يعدل بساعة متعة شيئاً في الوجود ؛ ولكنه قد يعمر مع المعمرين وقد تطول حياته فكيف يجازف بكنز ثمين ؟ وهب أنه نجا من الباراشوت ؛ افليس محتملا أن يصيبه روماتزم من برودة البحر ؟ وكيف يحتمل الروماتزم ثلثمائة عام ؟ كلا .. كلا .. خير من كل هذا أن يرفض الدعوة ، وقد كان واستهان هذه المرة بغضب المرأة الزنجية ؛ ويسر كونفوشيوس لهذه النهاية أن تغلبت فيه روح الحكمة على غريزة اللهو والرياضة وأن أصبح جباناً حساساً حكيما !!! ولا يحفل بيرجلابن بهذه الأوصاف، فليكن جباناً أو غير جبان ، أمر واحد يهمه ويكترث له وهو السلام مادام من الجائز أن يعيش ثلثمائة عام ! .

(البقية في العدد المقبل)

نجيب محفوظ

احلام الشباب

عاج الخيال فلم يبُل أُواما ... ومضى وخلّف في الضلوع ضراما

ما لي وللكحلاء هجت عيونها ... فالآن قلبي أنصلا وسهاما

ياقلب ويحك ما سمعت لناصح ... لما ارتميت ولا اتقيت ملاما

لعبت بك الحسناء تدنو ساعة ... فتثير ما بك ثم تهجر عاما

والحب مالم تكتنفه شمائل ... غراء كان معرة وأثاما

والحب أحلام الشباب هنيئة ... ما أطيب الأيام والأحلاما

والحب نازعة الكريم تهزه ... فيصول سيفاً أو يسيل غماما

والحب ملهاة الحياة وطبها ... ولقد تكون به الحياة سقاما

والحب نيران المجوس لهيبها ... يحيي النفوس ويقتل الأجساما

والحب شعر النفس إن هتفت به ... سكت الوجود وأطرق استعظاما

والحب من سر السماء فسمه ... وحياً إذا ما شئت أو إلهاما

لولاه ما أضحى سليل زبيبة ... يوم التنافر سيداً مقداما

ولما رمى في الجحفلين بنفسه ... لا يتقي رمحاً ولا صمصاما

الحب ألبسه المروءة يافعاً ... وأعده للمكرمات غلاما

ياشد ما فعل الغرام بمهجة ... ذابت أسى وصبابة وغراما

كانت صئولا لا تنيل زمامها ... فغدت أذل السائمات زماما

سكنت إلى حلو الغرام ومره ... ورعت حقوقا للهوى وذماما

وطوت أحاديث الجوى فطوت ... داءً يدك الراسيات عقاما

يازهرة نم النسيم بعرفها ... وجرى بها ماء النعيم جماما

ياجنة لو كان ينفع عندها ... نسك لبتنا سجداً وقياما

ياطلعة الروض النضير تحية ... ومجاجة المسك الذكي سلاما

٤ ـ ابن ســـــــينا

حياته وفلسفته

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندى
ماجستير فى الفلسفة

حياته فى الرى

لم يطل عهد مقام فيلسوفنا بجرجان ، والأرجح أنه لم يزد على العامين على الأكثر . ونحن نجد الروايات العربية كلها مجمعة على أنه خرج منها إلى «الرى» عاصمة الأمير مجد الدولة أبى طالب رستم بن فخر الدولة بن بويه ، وأنه اتصل بهذا الأمير بسبب كتب وصلت معه تنبىء بعظيم مكانته فى الفلسفة والطب ، وأن الصلة صارت بين الأمير والفيلسوف وثيقة جداً بسبب الطب أيضاً ، وأنه بقى بالرى إلى أن قصدها الأمير شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد ، وأنه تركها إلى همذان . وتلك الحوادث التى تذكرها التراجم العربية لابن سينا إنما وقعت فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . قال ابن الأثير فى حوادث تلك السنة : « لما قتل (بدر حسنويه أمير الجبل) استولى شمس الدولة أبو طاهر بن فخر الدولة بن بويه على بعض بلاده ، فلما علم سلطان الدولة بذلك أطلق هلالاً وجهزه وسيره ومعه العساكر يستعيد ما ملكه شمس الدولة من بلاده ، فسار إلى شمس الدولة فالتقيا فى ذى القعدة واقتتل العسكران فانهزم أصحاب هلال وأسر هو فقتل أيضاً وعادت العساكر التى كانت معه إلى بغداد على أسوأ حال »(١).

لا يضيف الرواة إلى ابن سينا ـ إذ كان بالرى ـ غير مصنف واحد ، هو كتاب (المعاد) ، وهذا الكتاب غير (المبدأ والمعاد) الذى صنفه بجرجان للشيرازى . قال ابن أبى أصيبعة عن كتاب المعاد : « إنه صنفه بالرى للملك مجد الدولة »(٢) .

ولقد تدل قلة مؤلفات الفيلسوف بالرى على أن مدة إقامته بها كانت جد قصيرة .

حياته فى همذان

تحدثنا التراجم العربية بعد ذلك بأنه انتقل من الرى إلى قزوين ، ونرجح أن ذلك كان فى أوائل عام ٤٠٦ هـ ، وتحدثنا بأنه انتقل بعد ذلك إلى همذان عاصمة الأمير شمس الدولة أبى طاهر

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : أخبار سنة ٤٠٥ هـ جـ٦ ص ١٧٤ طبعة أوروبا (٢) ابن ابى أصيبعة طبقات الاطباء جـ٢ ص ١٩

ابن فخر الدولة بن بويه . وعندما كان الفيلسوف بهمذان اتفق أن مرض أميرها بمرض القولنج (المغص) فاستقدم الفيلسوف لعلاجه فعالجه وبقي في قصره أربعين يوماً وصار من ندماء الأمير . وفي عام ٤٠٨ هـ خرج ذلك الأمير إلى قرميسن لحرب من الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بنظام مستمر ، وخرج معه الفيلسوف ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وعاد الأمير إلى عاصمته منهزماً بدأت الحياة التي لم تذق فيلسوفنا طعم الراحة والاستقرار منذ أن جرفت به من بخارى إلى أن ألقته بهمذان ، بدأت تلك الحياة تبتسم فتنيله مرتبة سياسية خطيرة ، ذلك أنه صار وزير شمس الدولة . وتذكر التراجم العربية أن جنود همذان ثارت على الأمير لتقليده الوزارة لأبي علي بن سينا ، وكبست دار الوزير وأغارت على أسبابه واغتصبت جميع ما كان يملكه ، وسألت الأمير أن يقتله ، فامتنع واكتفى بنفي وزيره عن الدولة مرضاة لهم ، فتوارى الوزير أربعين يوماً في دار عين من أعيان همذان يقال له أبو سعيد بن دخدوله . وحدث أن عاودت الأمير علة القولنج فاضطر إلى استدعاء ابن سينا من مخبئه واعتذر إليه كل الاعتذار وأعاد إليه الوزارة ثانية .

ولم تذكر الروايات كلها شيئاً ما عن تاريخ وزارته : متى بدأت ؟ ومتى انتهت ؟(١) ، إلا أننا نعرف أن خليفته في الوزارة كان « تاج الملك » ، ونحن نجد في كتاب الكامل لابن الأثير في أخبار سنة ٤١١ هـ ذكراً لتاج الملك وإشارة تدل على أنه كان وزيراً في ذلك الحين مما يجعلنا نرجح بل نؤكد أن وزارة أبي علي بن سينا كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ (٤١١هـ) من غير شك ، كما أنها كانت قد بدأت بعد عودة الأمير شمس الدولة منهزماً من حروبه بقرميسن عام ٤٠٨هـ .

ونحن لا نعرف شيئاً قيماً عن حياة فيلسوفنا أثناء تقلده الوزارة ، كما لا نعرف شيئاً ما عن حكومة الفيلسوف : هل حاولت أن تحقق أنظار الفارابي في « المدينة الفاضلة » أم أنها سارت على أسلوب الحكم المعروف آنئذ ؟ على أن التاريخ سجل للحوادث الشاذة لا الحوادث المضطردة ، فلو أن الفيلسوف شذ في أسلوب حكمه عن الأساليب المعروفة آنئذ لما نسى التاريخ أن يسجل له هذا الشذوذ .

ويصف لنا نظامي عروضي السمرقندي في القصة الثامنة والثلاثين أسلوب حياة الوزير اليومية ، فيقول : « وكان أبو علي بن سينا في ذلك العهد وزيراً ، وكان ملك الملوك شاهنشاه علاء الدولة محمد بن دشمنزيار يجله كثيراً فألقى مقاليد الأمور بين يديه ووكل كل شيء إلى حكمته ، ولم يكن منذ الأسكندر الأكبر — الذي كان أرسطاليس وزيره — ملك استوزر أحداً مثل أبي علي . وحين كان وزيراً كان يستيقظ كل يوم قبل الفجر ليكتب بضع صحف من الشفاء ، وعند الفجر يستقبل تلاميذه وهم : بهمنيار كياريس ، وأبو منصور بن زيلا ، وعبد الواحد الجوزجاني ، وسليمان الدمشقي ، وأنا أبو كالنجار (راوي هذه القصة) ، وكنا نتلقى عليه العلم حتى يصبح الصبح

(١) حتى كتب تاريخ الوزارات ككتابي الصابي والجهشياري قد صمتا عن وزارة أبي علي بن سينا صمتاً تاماً

فيصلى بنا إماماً . وعند ماتخرج كان يلقانا بالباب ألف من الفرسان بينهم وجوه الدولة وأعيانها وأصحاب الحاجات ، فيركب الوزير فرسه وتتبعه هذه الحاشية حتى أبواب ديوانه ويبقى الوزير فى الديوان حتى الظهر ثم يعود ، وكان يتناول الغـذاء على مائدته خلق كثير ، وكان يتقيـل قيلولته ثم يستيقظ ليؤدى صلاة العصر ، ويلزم الأمير بعد ذلك ويتحدث وإياه حتى بعد صلاة المغرب ؛ ولم يكن يتدخل بينه وبين الأمير فى الشئون الخاصة بالدولة شخص ثالث ...(١) » .

ورغم أن هذه الرواية تصور لنا أسلوب حياة وزيرنا اليومية فإنها محشوة بالخلط والأغلاط ؛ فهى تذكر لنا أنه كان وزيراً لعلاء الدولة ، والواقع أن علاء الدولة لم يكن بهمذان ولم يستوزر فيلسوفنا وإنما كان الفيلسوف وزيراً لشمس الدولة . هذا وبينما تقول هذه الرواية إن الفيلسوف كان يلقى دروسه صباحا إذ بنا نجد البيهقى يقول : « فكان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم وأبو عبيد [الجوزجانى] يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومى من القانون نوبة ، وابن زيلا يقرأ من الإشارات نوبة ، وبهمنيار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة » .(٢)

ولا يسلم هذا النص من التجريح أيضاً ، فإنه يشير إلى أن ابن زيلا كان يقرأ الإشارات وهذا قول باطل على ما يظهر ، لأن كتاب الشفاء لم يكن قد تم بعد ، ولم يكن قد شرع فى كتابة « النجاة » ، فكيف بتلميذه يقرأ من كتاب صنف بعد الشفاء والنجاة ؟ ذلك لأن الإشارات كما يقول ابن أبى أصيبعة : « هى آخر ماصنف فى الحكمة » (٣) ، ويؤخذ مثل هذا المعنى من كلام ابن سينا نفسه فى بعض رسائله . كذلك يشير النص الأخير إلى أن بهمنيار كان يقرأ « الحاصل والمحصول » ، وهذا الكتاب — كما تقدم فى المقال الثانى (٤) — صنفه فيلسوفنا ببخارى لأبى بكر البرقى كما صنف له « البر والإثم » ، وقد قال ابن سينا عن هذين الكتابين : « لا يوجدان إلا عنده (أى البرقى) فلم يعرهما أحداً ينتسخ منهما » ،(٥) ومالا يوجد إلا لدى البرقى ببخارى لا يمكن طبعاً أن يقع بين يدى بهمنيار بهمذان .

ولعل الذى يصحح روايتى السمرقندى والبيهقى قول القفطى : « وكان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وكنت (٦) أقرأ من الشفاء نوبة وكان يقرأ غيرى من القانون نوبة(٧) » .

تلك صورة من حياة الفيلسوف الوزير ؛ ولما أن أقيل من وزارته — وكان ذلك (كما رأينا) قبل عام ٤١١ هـ — ظل حفيظاً على ولائه للأمير شمس الدولة ونديماً من ندمائه . ولما أن توفى

١) السمرقندى : المقالات الاربع . الترجمة الانجليزية ص ٩٢ ، القصة ٣٨

٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام . ص ٣٣

٣) ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩

٤) مجلة المعرفة: عدد اغسطس سنة ١٩٣٣ ص ٢٨٥

٥) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤١٧ ؛

٦) أى الجوزجانى

٧) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٤٢٠ .

شمس الدولة عام ٤١٢ هـ طالب الجنود إلى الأمير الجديد سماء الدولة بن شمس الدولة استوزار أبي علي بن سينا فأبي عليهم الأمير ذلك . فاستاء الفيلسوف من مسلك سماء الدولة نحوه وأصبحت الحياة عبئاً ثقيلا على نفسه بهمذان ، وفكر في أن يخرج منها إلى أصفهان عاصمة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه ، فاحتجب في دار رجل من أعيان همذان يقال له أبو غالب العطار زمناً طويلا مشتغلا بالتأليف ، وهنا في هذه الدار أتم ابن سينا معظم أجزاء أكبر موسوعة فلسفية في الإسلام ، ألا وهي كتاب «الشفاء» الذي يقع في ثمانية عشر مجلداً ، على أن شغله الشاغل آنئذ كان التحاقه ببلاط أصفهان ، ولذلك فقد كان يكاتب سراً الأمير علاء الدولة يطلب خدمته والمسير إليه . ولسوء حظ الفيلسوف أن أماط تاج الملك وزير سماء الدولة اللثام عن أمر تلك المكاتبة فألقى عليه القبض واعتقله بقلعة فردجان (١) ومعه شقيقه محمود وتلميذه الجوزجاني ، وفي هذه القلعة أنشأ قصيدة منها :

دخولي باليقين كما تراه   وكل الشك في أمر الخروج

ولقد أوقف الفيلسوف السجين حياته للتأمل والتأليف : فصنف بفردجان أولى رسائله الرمزية في الفلسفة ، ألا وهي « حي بن يقظان » ، وصنف بها كتاب « الأدوية القلبية » ، وكتاب « الهداية » وغير ذلك من المؤلفات . وبقي بهذه القلعة محبوساً أربعة شهور نشبت في أثنائها حرب بين علاء الدولة وسماء الدولة انهزم فيها الأخير ، وعند عودته إلى همذان مر بقلعة فردجان فأخذ الفيلسوف معه إلى عاصمته ، ونزل الفيلسوف هذه المرة بدار رجل يقال له « العلوي » وتظاهر بالاعتكاف للعلم والتصنيف ، على حين كان يعد عدته للانتقال من همذان ، ولم يطل مكثه في هذه الدار إذ انسل متنكراً في زي الصوفية بصحبة أخيه محمود وتلميذه الجوزجاني وغلامين يقومان بخدمته ميمماً شطر أصفهان عاصمة علاء الدولة ، ويظهر أن انسلاله ذلك إنما كان في عين السنة التي حبس فيها بفردجان والتي نشبت في أثنائها الحرب — التي تقدم ذكرها — بين أميري أصفهان وهمذان ، وهذه الحرب قد وقعت عام ٤١٤ هـ كما جاء في كتاب « الكامل » لابن الأثير في أخبار تلك السنة ، فإنا نرجح أن آخر عهد فيلسوفنا بهمذان إنما كان هذا العام .

ولاشك أن أسعد أيام حياته إنما رآها بهمذان ، ولكنه رأى فيها أيضاً أتعس أيام الحياة ، حين عبس الزمان في وجهه وألقاه بفردجان سجيناً . ومؤلفاته بهمذان كثيرة مهمة خطيرة بقدر ما كان خطيراً في الدولة ، ذلك لأنه أتم بها « القانون » عمدة الطب في القرون الوسطى شرقاً وغرباً ، ووضع برنامج الشفاء وحقق منه أعظم أجزائه ، وكتب تلك الرسائل التي تضاف إليه حين كان بفردجان ، ولعل من أهم كتبه بهمذان كتاب في الاقتصاد السياسي وفن السياسة لم يبق لنا منه غير اسمه وهو « تدبير الجند والمماليك والعساكر وأرزاقهم وخراج الممالك » ، ويفهم من العنوان أنه كتاب أملته عليه التجارب الوزارية .

---

(١) يقول ابن الأثير : « فردجان على بعد خمسة عشر فرسخاً من همذان » الكامل . ج ٦ ص ٢٨٥ طبعة اوبالور

حياته في أصفهان

لقد قضى أبو علي بن سينا أربع عشرة من السنين في كنف علاء الدولة بأصفهان، ومع ذلك لم يبق لنا من أخباره في أثنائها غير نذر يسير من القصص التي لا تملأ هذا الفراغ الواسع من الزمان.

ولعل الأمير الوحيد الذي اتصل به فيلسوفنا بسبب آخر غير الطب هو علاء الدولة أمير أصفهان، فلقد كان هذا الأمير ميالا بطبعه إلى العلوم العقلية محباً للفلاسفة، ولقد اتهم بسبب ذلك في عقيدته الدينية؛ قال ابن الأثير: «وكان ابن سينا يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه، ولاشك أن أباجعفر كان فاسد الاعتقاد، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده»(١). ولعل مما شجع ابن سينا على الاتصال بعلاء الدولة أن هذا الأمير كان الوحيد الذي يستطيع أن يحتمي به ابن سينا من أي اعتداء كان قد يصيبه من السلطان محمود بن سبكتكين الذي استفحل أمره إذ ذاك وصار سيد ملوك فارس ومطوح عروشها. قال البيهقي مشيراً إلى تكافؤ أميري أصفهان وغزنة: «وكان السلطان محمود وابنه مسعود لا يعدان واحداً من الملوك من أقرانهما وخصمائهما سوى علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه». (٢)

ولقد اشترك ابن سينا في الخصومة التي كانت بين أميري أصفهان وغزنة — عند ما كان أمير هذه الأخيرة هو السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين — بما يمكن لمثله أن يشترك به، ذلك لأنه عندما انتصر السلطان مسعود في حروبه على علاء الدولة ودخل أصفهان أسر أخت علاء الدولة وحملها معه إلى غزنة ليرغم أخاها على تسليم ولاية من ممتلكاته فدية لها. وهنا يتدخل الفيلسوف في الأمر فيحله بما أوتي من ذكاء وفطنة، فيكتب إلى السلطان مسعود ويقول له: إن تزوجت بهذه المرأة يسلم علاء الدولة إليك الولاية. فتزوجها سلطان غزنة ثم طالب أمير أصفهان بالبر بالوعد أو أن يسلم أخته إلى عساكره يعتدون عليها. فيكتب ابن سينا إلى سلطان غزنة يقول: «إن كانت أخت علاء الدولة فهي زوجتك، وإن طلقتها فهي مطلقتك، والغيرة على الأزواج لا على الإخوة» (٣)، فأنف السلطان من ذلك ورد أخت علاء الدولة عليه.

ويروي البيهقي أن علاء الدولة أهدى ذات مرة منطقة مفضضة بسكاكينها لأبي علي، ثم رآها فيما بعد لدى غلام من غلمان الفيلسوف؛ فغضب على تفريط أبي علي في هديته غضباً شديداً وأمر بقتله بعد أن صكه بكفه، ففر أبو علي إلى الري في زي المتصوفة وليس معه شيء ينفقه على نفسه، ودخل السوق باحثاً عن أروج حرفة يمكن أن يتخذها لنفسه، فبعد بحث وتفقد وقع بصره على شاب رقاء يعرف الكهانة والتنجيم يحيط به خلق كثير بينهم امرأة تطلعه على تفسرة،(٤)

---

١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ أخبار سنة ٤٢٨ هـ

٢) البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٥

٣) البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام ص ٣٧ — ٣٨، والشهرزوري: تاريخ الحكماء ص ٣٢٩

٤) هكذا في الأصل. في لسان العرب: وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرة.

فقال لها الرقاء: أليست تفسرة يهودي؟ قالت: هو كما تقول. قال: وقد تناول رايباً؟ قالت: نعم، فقال: داركم في موضع منخفضة في المدينة!؟ قالت: صدقت، فتعجب ابن سينا من أمر ذلك الرقاء، فلما أن نظر الرقاء إلى وجهه قال له: إنك أبو علي بن سينا الفيلسوف، فاستولى الذهول عليه من شدة العجب، ولما فرغ الرقاء من عمله سأله الفيلسوف عن أمر التفسرة وكيف عرفها، فنظر إليه الرقاء وقال: عرفت أنها تفسرة يهودي لأني رأيت في يدها قميصاً عليه غبار اليهود، ورأيته ملوثاً بشيء من الرايب فحدست أنه تناول منه شيئاً؛ واليهود جميعاً يسكنون الجانب المنخفض من المدينة، فعرفت بذلك أين تكون دارها. قال له ابن سينا: وكيف عرفتني؟! قال: كنت أسمع بجلالك وحسن هيئتك وفطانتك، فلما رأيتك حدست أنك ابن سينا هاربت من علاء الدولة، وإني لأعرف أنه بزول غضبه عليك ويشتاق إلى منادمتك؛ فرجائي إليك أن تقص على الأمير أمري لعله يستظرفني للمنادمة أيضاً. وبعد مضي أيام قلائل عفا الأمير عن نديمه الفار واسترجعه وخلع عليه، فقص ابن سينا عليه قصة ذلك الرقاء، فارتضاه الأمير وصار ذلك الرقاء من ندمائه.

لا نستطيع أن نحدد نصيب هذه القصة من الصحة، لأن القصص التي تنتحل على العظماء أكثر مما لهم في الحقيقة؛ ثم لأن في هذه القصة بالذات تبدو الصنعة القصصية ظاهرة جلية، إلا أننا نستطيع أن نستشف من ثناياها بعض الشيء عن مقام الفيلسوف في المجتمع الذي كان يعيش فيه، وعما كان يتمتع به من شهرة ذائعة وصيت بعيد.

ويخطىء صاحب «المقالات الأربع» فيقول في القصة الثامنة والثلاثين راوياً عن تلميذ من تلاميذ الفيلسوف، هو أبو كالنجار: إن ابن سينا كان وزيراً لعلاء الدولة بالري. وفي هذه الرواية خطأ بين، فأولا لم يكن قط علاء الدولة أميراً بالري، وثانياً لم يرو ألصق الناس به - ألا وهو الجوزجاني - أن أستاذه كان وزيراً لعلاء الدولة كما كان وزيراً لشمس الدولة بهمذان؛ وكل ما يعرف عن صلة الفيلسوف بعلاء الدولة أنه كان نديماً للأمير، بل أخص ندمائه الذين يلزمونه في السلم وفي الحرب، وكان - حين تنعقد مجالس النظر بين يدي أميره - الشخص المقدم على جميع العلماء، يقول البيهقي واصفاً ابن سينا في مجالس العلم بحضرة علاء الدولة: «وكان أبو علي يحضر مجالس علاء الدولة وعليه قباء داري وعمامة خيش وخف أديم، ويجلس بين يديه قريباً منه ... فإذا تكلم بين يديه استمع أهل المجلس لا ينبسون بحرف».(١)

أما من الوجهة العلمية فقد كانت حياة الفيلسوف بأصفهان زاخرة مليئة بالتجديد، فقد أعاد دراسة اللغة العربية وآدابها وصرف في ذلك زهاء الثلاث سنين، وقد مارس عملياً علم الفلك وقام بأرصاد مختلفة؛ وذلك لأن علاء الدولة عني بإصلاح الخلل الواقع في التقاويم القديمة، وأطلق لأبي علي من الأموال ما يحتاج إليه، فأخذ هذا يعمل ثماني سنين بمعونة تلميذه الجوزجاني في إصلاح تلك التقاويم، واخترع لذلك آلات راصدة لم يسبقه أحد إلى مثلها، وولى تلميذه

(١) البيهقي: تاريخ حكماء الاسلام ص ٤٠

الجوزجانى إدارة تلك الآلات واستخدام صناعها ، ويشير الجوزجانى إلى أن رصده هذا وقع فيه خلل أيضاً ، وعزى ذلك إلى كثرة أسفار الفيلسوف صحبة علاء الدولة فى حروبه الكثيرة .

وفى غير اللغة والفلك اشتغل ابن سينا بالفلسفة أيضاً ؛ فأتم بأصفهان كتابه المسمى «الشفاء»، وكتب له ملخصاً هو «النجاة» . قال عنه الجوزجانى: « صنفه فى الطريق فى السنة التى توجه فيها علاء الدولة إلى سابور خواست [أى سنة ٤١٨ كما جاء فى ابن الأثير] »(١)، وكتب بعد ذلك كتابه المشهور باسم «الإشارات والتنبيهات» ، وصنف أيضاً كتابه «الإنصاف» فى الفلسفة، وكان يقع فى عشرين مجلدة ، قال عنه ابن أبى أصيبعة: « شرح فيه كتب أرسطو وأنصف فيه بين المشرقيين والمغربيين ضاع فى نهب السلطان مسعود (٢) » ، كذلك صنف لعلاء الدولة أهم كتبه المكتوبة بالفارسية « دانش نامه العلائى »(٣) وقد يكون هذا الكتاب أول مصنف فى الفلسفة باللغة الفارسية ، ولاشك أن للفيلسوف بأصفهان ـ غير تلك الكتب ـ رسائل هامة فى مختلف العلوم، ويمكن مراجعة ذلك فى ثبت آثاره العلمية التى سنتحدث عنها فى مقال آخر .

وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة الجليلة المضطربة أخذت شمس حياته التى تألقت فى سماء فارس ثمانى وخمسين سنة تنحدر بسرعة نحو مغربها ، فلقد مرض بالقولنج وهو بصحبة علاء الدولة عند خروجه لمحاربة تاش فراش ، وتقول الروايات العربية إنه لشدة حرصه على برئه ـ خشية من هزيمة يدفع إليها ولا يستطيع المسير فيها مع المرض ـ حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى مرات ، فتقرحت بعض أمعائه وظهر به سحج(٤)، ثم ظهر به الصرع الذى يتبع عادة القولنج ، فظل يدبر أمر جسمه بخبرته وطبه ؛ فأمر طبيبه باتخاذ دانقين من بذر الكرفس فى جملة ما يحقن به طلباً لكسر ريح القولنج ، فأخطأ الطبيب إذ وضع من ذلك البذر خمسة دراهم فازداد المرض حدة . يقول الجوزجانى : « لست أدرى أعمداً فعل ذلك أم خطأ، لأنى لم أكن معه ، وكان يتناول دواء المتروديطوس لأجل الصرع ، فطرح بعض خدمه شيئاً كثيراً من الأفيون فيه وناولوه إياه يريدون إهلاكه ، وسبب ذلك أنهم خانوه فى أموال كثيرة اختلسوها من خزانته ولم يجدوا وسيلة إلى إخفاء الجريمة غير وفاته » .

نقل الفيلسوف وهو على هذه الحال إلى أصفهان حيث نشط فى معالجة نفسه حتى قدر على المشى وأخذ يحضر مجلس علاء الدولة ، وهو مع ذلك كثير الخلط فى أمر المعالجة(٥) فلم يبرأ من علته تمام البرء ، فكان ينتكس ويبرأ بين حين وآخر .

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل: أخبار سنة ٤١٨ هـ (٢) ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ـ ص ١٨

(٣) طبع هذا الكتاب بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ ـ ١٨٩٢ م) (٤) السحج: الخدش

(٥) « المعالجة » فى أكثر النسخ: فى امر «المجامعة» ، الا البيهقى الذى يقول المعالجة ، وهذا القول أقرب الى الصحة للقرينة : فان التخليط لا يكون الا فى الادوية اللازمة للمعالجة .

ولما قصد علاء الدولة إلى همذان ـ لحرب نشبت بينه وبين أميرها ـ صحبه الفيلسوف فى رحلته؛ وهنا عاود المرض الفيلسوف فى الطريق فضعف جسمه وخارت قوته ويئس من الشفاء فأهمل العلاج وأخذ يقول: « المدبر الذى كان يدبر بدنى قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة »؛ ولبث على هذه الحال أياما معدودات، ثم انتقل إلى جوار ربه، ويتفق الرواة جميعاً على أن وفاته إنما كانت بسبب هذا المرض، إلا رواية يذكرها ابن خلكان وينسبها للشيخ كمال الدين بن يونس الذى يذهب إلى أن مخدوم الفيلسوف (وهو علاء الدولة) غضب عليه فاعتقله فمات فى السجن وهو ينشد:

رأيت ابن سينا يعادى الرجال   وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفاء   ولم ينج من موته بالنجاة

وبطلان هذه الرواية مما لا مجال للشك فيه: ذلك لأن الجوزجانى ينسب هذين البيتين إلى رجل من معاصرى الفيلسوف لا إليه نفسه، ولعل قصة غضب الأمير عليه واعتقاله فى سجن، ووفاته بذلك السجن إنما تولدت فى خيال الشيخ كمال الدين بن يونس من تورية فى البيت الأول؛ إذ أن لفظ « الحبس » يعنى السجن، ويعنى أيضاً انحباس البطن من القولنج، وتفسير اللفظ بالمعنى الأول جائز، إلا أنه ليس أقرب إلى الواقع من تفسيره بمعناه الثانى.

أما موضع وفاته ووقتها فيذكر الجوزجانى أنه توفى بهمذان وقبره تحت السور من جانب القبلة، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ويزيد البيهقى على ذلك أن وفاته كانت فى الجمعة الأولى من رمضان من تلك السنة.

وهناك رواية ثانية هى رواية عز الدين أبى الحسن على بن الأثير الذى يقول: إنه توفى بأصفهان ـ لا بهمذان ـ وذلك فى نفس العام المذكور ولكن فى تاريخ أسبق، قال: « وفى شعبان توفى أبو على بن سينا الحكيم الفيلسوف المشهور صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة وكان موته بأصفهان »(١). وهناك رواية ثالثة تتوسط بين الروايتين السالفتين فتقول إنه توفى بعيداً عن أصفهان ثم نقل إليها فيما بعد ودفن فى موضع بقرب باب كونكبند، وترد هذه الرواية فى « طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة »(٢).

إلا أن ابن خلكان يرجح الرواية الأولى ويغلبها ويقول إنها الأشهر، وهى تتمشى فى الحقيقة مع منطق الحوادث التى ذكرها الجوزجانى عن حياة أستاذه الأخيرة عند ما يشير إلى أنه توفى لما كان يسير بصحبة أميره إلى همذان بمناسبة حرب نشبت عام ٤٢٨ هـ.

اضطراب فى الحياة واضطراب فى الممات!! أو ليس من سخرية القدر أن يكون قبر أعظم من أنجبتهم فارس وأشهر أعلامها مجهولا منذ القرون الأولى؟!

محمد ثابت الفندى

[البحث بقية]

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦ ـ أخبار سنة ٤٢٨ طبعة أوروبا (٢) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء ج٢ ات.١٩١٠، ص١٢

هل رمت غيرى زوجة؟

للشاعرة المصرية الجليلة السيدة منيرة توفيق

يسرنا أن نقدم إلى قراء « المعرفة » اسماجديداً لم يسبق أن طرق الأسماع كثيراً، ولكنه جدير بأن تعيه الآذان، وأن يجرى على كل شفة ولسان، وأن نكشف فى سماء الأدب عن كوكب لم يلح قبل الآن، ولاسبق أن سمع به إنسان، تلك هى الشاعرة الملهمة السيدة منيرة توفيق كريمة المرحوم مصطفى بك توفيق كبير الشرط (حكمدار) بمديرية الشرقية، وزوجة حضرة الفاضل رشدى افندى ماهر مأمور بندر الزقازيق .

وقد أرسلت القصيدة التالية التى عاتبت فيها قرينها المفضال على ماتخيلته أنه عازم على زواج أخرى، فرأينا إثباتها هنا، لما فيها من الروعة والعبرة، وحتى يعلم الناس من جهة أخرى أن آفق مصر مازال بحمد الله تزينه نجوم الأدب من الشاعرات بعد عائشة التيمورية وملك ناصف . قالت الشاعرة منيرة توفيق :

طال السهادُ وأرَّقت عينى الكوارث والنوازل
لما جفانى من أحـ ـب وراح تشغله الشواغل
وطوى صحيفةَ حُبِّنا وأصاخ سمعاً للعواذل
ياأيها الزوج الكريـ ـم، وأيها الحِب المواصل
مالى أراك معاندى ؟ ومعذبى من غير طائل؟
لم ترع لى صلة الهوى وهجرتنى، والهجر قاتل
هل رمت أن تغدو طليـ ـقاً، لايحول هواك حائل؟
أم رمت غيرى زوجة ؟ ياللأسى مما تحاول !
إن تبغِ مالا فالذى تدريه أن المال زائل
أو تبغ أصلا فالتى قاطعتها بنت الأماثل
أو تبغ حسناً فالمحا سن جمّة عندى مواثل
أو تبغ آداباً فأشـ ـعارى على أدبى دلائل

أنا ما حفظت سوى الوفا ء ولا ادخرت سوى الفضائل
وأنا وبى شرف العفا ف أعد مفخرة المنازل
فجزيتنى شرّ الجزا ء وكنت فيه غير عادل
أنسيتَ عهداً قد مضى حلو التواصل والتراسل؟
أيام تبذلُ من وسا ئل أو تنمق من رسائل
وتبث معسول المنى وتمد أسباب التحايل
ولبثت تغرينى بما تبديه من غر الشمائل؟
فحسبت أن الدهر أذ صفنى، وأن السعد ماثل
ظناً بأنك لم تكن لا بالعقوق ولا المخاتل
ماذا جرى فهجرتنى؟ والحب شيمته التساهل
عاشرت أهل السوء فاق تنصوك فى شر الحبائل
ومضيت تطلب بينهم عيش المقيد بالسلاسل
ورضيت هجر حليلة لما تزل خير الحلائل
والله ما فكرت يو ماً فى جفاك ولم أحاول
وجفوت ياقاسى الطبا ع، ولم تدار ولم تجامل
فاعلم بأنك قاتلى والموت فيما أنت فاعل
أين المسائل والموا صل فى العشى وفى الأصائل؟
أين المودة فى الهوى بينى وبينك بالتبادل؟
أين الحديث العذب منـ ك وأين ولىّ سحر بابل؟
إنى أسائل أين عهدك فى الهوى إنى أسائل
أدريت مافعل النوى بى من ضنى أم أنت ذاهل
فاربأ بنفسك وانهها وارجع إلى زين العقائل

الأدب العربى كأدب عالمى

للأستاذ محمد على إمام المحانى

أتحدث عن الأدب العربى كأدب مصور للعواطف البشرية المشتركة، صادق فى تصويره لهذه العواطف ؛ ذلك الأدب الذى يتجرد من الأوضاع والأوساط المحلية ويتسامى إلى بحث العواطف الانسانية التى لا يحدها تقسيم أنثروبولوجى أو فاصل وضعى .

وإذن فالجزء النفسى الخالد هو حجر الزاوية فى بناية الأدب العالمى؛ ذلك لأن الإنسانية متشابهة فى إحساساتها وميولها . فالحب عاطفة جياشة تغزو قلوب الشرقيين كما تغزو قلوب الغربيين ؛ والإحسان عاطفة تفيض بها نفوس الشرقيين كما تفيض بها نفوس الغربيين . وهنا مسألة أحب أن أقف عندها قليلا .

قد يقوم الأثر الأدبى على العنصر الدينى Element Religieux كما نجد فى شعر حسان بن ثابت، وكما نجد فى رسالة الغفران لأبى العلاء والكوميديا الإلهية لدانتى والفردوس لملتون . وقد يقوم الأثر الأدبى على العنصر الحماسى Element Heroique كما نجد فى شعر المتنبى والبارودى وكما نجد فى « الالياذة » لهوميروس . وقد يقوم الأثر الأدبى على العنصر العلمى Element Scientifique كما نجد فى مخلفات الجاحظ وابن سينا، وكما نجد فى قصص « Jule verne » وهى قصص كانت تدور على اكتشافات علمية ظهرت فيما بعد، وكأن الكاتب هو المكتشف لها، وكما نجد فى مذكرات «شرلوك هولمز» الأسس الأولى للشرطة العلمية Police Scientifique لواضعها كونان دويل Conan Doyles

وقد يقوم الأثر الأدبى على وصف محلى للطبيعة Soeale كما نجد فى القصيدة السينية للبحترى فى وصف قصور كسرى أنو شروان ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، ورواية سلمى لمدام أمى خير ، وكما نجد فى قصيدة « البحيرة » للامرتين . وفى رأيى أن هذه الآثار كلها أدب عالمى مادامت الفكرة الانسانية تكمن فى أطوائها، وما دامت العاطفة البشرية تلعب دورها فيها . والأدب العربى ـ من هذه الناحية ـ أدب عالمى، والمقام لا يتسع هنا للإشهاد والتدليل ، فمن شاء فليرجع إلى الآثار الأدبية يجد فيها حاجته ويقضى منها لبانته .

أنتهى من هذا فأتحدث عن الجانب الآخر للموضوع ، عن الأدب العربى كأدب له حيويته وقوته، أتحدث عن الأدب العربى القديم وأوازنه بالآداب التى عاصرته. وأتحدث عن الأدب العربى الحديث وأوازنه بالآداب التى تعاصره :

الآداب التى عاصرت الأدب العربى القديم تنتظم أربعة آداب : الأدب اليونانى القديم، الأدب الرومانى القديم ، والأدب الفارسى القديم ، والأدب الهندى القديم .

يطلق بعض العلماء — المتوفرين على دراسة الآداب القديمة — على الأدب الجاهلي، أدب البساطة والسذاجة ، بل يذهبون إلى أكثر من هذا فيشبهونه بأدب الزنوج الذين يعيشون في أفريقيا والهنود الحمر الذين يعيشون في أمريكا .

فالعرب — عند هؤلاء — قد بعدت بهم مواطنهم عن سيول الأمم المهاجرة والدول الغازية ، واعتزلت عن سائر الأمم بعض الاعتزال بالصحارى والبحار ، فهم لذلك أدنى إلى البداوة منهم إلى الحضارة ، وثم لم يكن أدبهم وليد الدرس والتعلم ، ولا سليل إعمال الفكر والتعمق في التخيل بل نتيجة طبيعة دراكة وفطرة حساسة ونفوس ذكية نظرت فألهمت فنطقت في غير تصنع ولا تكلف .

لكن التاريخ يحدثنا عن قيام مدنية باليمن، وآثار اليمن القائمة إلى اليوم وما رواه المؤرخون عن قصورها ومصانعها وعن سد مأرب وأمثاله ، كل ذلك يشهد بما كان في اليمن من عمران.

كذلك يحدثنا عن أهل الحيرة وبني غسان وعما كان بينهم وبين الفرس والرومان من حروب تستلزم حتما قيام مدنية لا يمثلها هذا الأدب الجاهلي . وسواء أأخذنا بنظرية القائلين بتمثيل هذا الأدب الجاهلي للعصر السابق للإسلام أم عدم تمثيله فليس هناك من شك في أن ما وصل إلينا من هذا الأدب قليل من كثير ، وليس هناك من شك أيضاً في أن هذا القليل لا تتعرف منه مكان هذا الأدب من الآداب الأخرى المعاصرة له .

جاء الاسلام وخرج العرب يحملون رسالتهم الدينية والخلقية ، وصمدوا للجهاد والفتح في سبيل الله حتى أنشئوا ملكا طبق الأرض، وما يكاد يستتب لهم الأمر حتى تسيطر هذه الرسالة العلمية، وحتى يتقلص ظل الرسالات التي سبقتها .

وهنا نجد ظاهرة غريبة . القرآن هو كلام الله ، أنزله على رسوله ، يتلقاه المسلمون قاطبة بالتجبيل والاعتبار ، وطبيعي ألا يقبل الاسلام إلا ومعه اللغة العربية ، تلك اللغة التي نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول . وهنا أيضاً لا نجد لغة مقصوراً فهمها على عدد من العلماء كما كانت الحال في ديانة ذرادشت Zoroastrian والديانة الهندية .

لم يثبت للأدب العربي — فيما أغار عليه شيء من الآداب الأخرى حتى البلاد التي لم تمح لغتها الأولى ، فقد بقيت اللغة الفارسية لغة التخاطب في هذه البلاد ، ولكن اللغة العربية ظلت لغة الأدب والثقافة . كذلك لم يثبت للأدب العربي الأدب اليوناني على قوته، فقد ضعف وتضاءل حتى انحصر في بلاد البيزنطيين والقسطنطينية وحل محله الأدب العربي في البلاد التي كان يسيطر عليها .

وعلى ذكر الأدب اليوناني يقول الأستاذ جيب في كتابه «تراث الاسلام» موازناً بين الأدب اليوناني والأدب العربي: «من أهم مميزات الأدب العربي والفارسي أنه عاطفي Romantic ،

وأن الطالب الذى نشأ على حب المثل اليونانية فى الأدب لن يجد فى أدب العرب والفرس تلك الصفات التى امتاز بها أدب اليونان ، والتى هى السر فى قوته الساحرة الباقية على مدى الزمان ؛ وبرغم مافيه من قوة الصياغة فإن فيه جموداً ؛ وفى أدب اليونان تنوعاً ، وفيه إغراقا ومبالغة وفى أدب اليونان شدة واتزانا . وقد بلغ الكتاب اليونان واللاتين مابلغوه من العظمة بتوخى البساطة والسهولة وعدم الاندفاع ، على حين أن الكاتب الشرقى ينسج آياته فيملؤها بالبديع الغامض من اللفظ ، ويلتمس لها الاستعارات والكنايات البديعة الخلابة . واليونانى يؤثر فى الفكر بواسطة الجمال الخالص ، أما العربى أو الفارسى فيؤثر فى الحاسة وفى الخيال بما يأتى به من الألوان الساحرة » . فالأستاذ جيب ينكر على الأدب العربى جموده وعدم تنوعه ووقوفه عند الأدب الرومانتيكى أى العاطفى ، وفى تعبير أدق وأوضح : ينكر عليه الشعر القصصى والشعر الغنائى والشعر التمثيلى ، كما نستبين ذلك من كتابه .

وردنا على ذلك أننا نجزم ــ فى قوة وفى يقين ــ بوجود هذه الألوان من الأدب فى الأدب العربى ، وإن اختلفت من حيث الكم فى الأدبين ؛ فالشعر القصصى نلمسه فى شعر المهلهل وعنترة وابن أبى ربيعة والنميرى وغيرهم ، كذلك نلمسه فى هذا الشعر الذى قيل فى حرب البسوس وداحس والغبراء وسيف بن ذى يزن ، وما إلى هذا مما نجده متفرقاً فى كتاب الأغانى وغيره من الكتب العربية ، وأنت واجد جمهرة كبيرة من الشعر التمثيلى أيضاً فى الأدب العربى إذا حذفت كلمة قلت وقالت أو قال من القصيد العربى . أليس شعر ابن أبى ربيعة ــ حين يقف فى طريق الركب إلى الحجيج ، وحين يقف من صاحبته ، وحين تقف منه ، وحين يتحبب إليها ، وحين تتجنى عليه ــ شعراً تمثيلياً بكل مافى هذه الكلمة من مدلول ؟ أليس شعر امرىء القيس ــ حين ينفلت فى ظلام الليل ويدخل على صاحبته فتأبى عليه ويلح عليها ــ شعراً تمثيلياً ؟

وفيم إنكار جيب على الأدب العربى خلوه من الشعر الغنائى ، والأدب العربى كله يمثل عواطف النفس وأهواءها ؟ وإذا كان الأمر كما يقول ، فماذا يرى فيما يتحدث به زملاؤه من بنى جنسه من أن العرب وأخلافهم قوم عاطفيون يسيرون وراء العاطفة وأهواء النفس ؟

هذا تخبط واضطراب من « جيب » ومن لف لفه فى غير ماشك لا يبزه ولا يفوقه إلا تخبطه واضطرابه حين يأخذ على الأدب العربى إغراقه ومبالغته واندفاعه .

فالأدب الحقيقى هو الأدب الذى يتجلى فيه الصدق والدقة الفنية ، وليس من الجائز مطلقاً ــ وفقاً للمنهاج العلمى الحديث ــ أن نصدر حكمنا على الأدب العربى بما نشاهده فى الأدب اليونانى ، بل يجب أن نحكم عليه وفق ميول أبنائه ، ووفق درجة نجاحه فى التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم . فإن كان هناك ميل إلى الإغراق والاندفاع فى طبيعة العربى ، فقد أدى الأدب العربى ــ كأدب حق ــ أمانته فى دقة وفى صدق ؛ على أننى لا أرى فيما قالوه

إغراقا واندفاعا ، ولكن الإسراف بدا فى آثار المقلدين من الشعراء فخاله هؤلاء إغراقاً واندفاعاً ، وإذن فلا مأخذ ولا قصور فى الأدب العربى.

أما الرومان فلم يكن لهم إنتاج خاص يفخرون به إذا استثنينا القانون والتشريع ، أما أدبهم فقد كان صدى للأدب اليونانى ، وشعرهم التمثيلى ما كان ليذكر بجانب الشعر التمثيلى اليونانى، وخطباؤهم مقلدون ومحاكون لشيشرون الذى تهذب وتتلمذ بدوره على أفلاطون.

أما الهنود فقد كانت لهم آداب واسعة هندوكية وبودية، وكانت أداتها اللغات الكلاسيكية التى كان مقصوراً فهمها على طائفة بعينها من الناس . ولأنهم قوم مفكرون، وفلاسفة بالسليقة ويرون أن التاريخ سلسلة وقائع ملموسة ، وهم لايعنون بغير الروح، وثمة لم يسيغوه مادامت هذه المادية لاتتفق وتلك الفلسفة؛ لهذا لم يترك لنا التاريخ إلا القليل النادر من آثارهم الأدبية التى تمكننا من الحكم على مكانة هذه الآداب .

ترك لنا التاريخ - فيما ترك - كتاب الهنود المقدس «الفيدا» الذى تأثر به الأديب والفيلسوف الإسبانى « سرفنتيس » مؤلف « دون كيشوت » ، وترك لنا أيضاً كتب « الأونبشاد » الهندية التى يحدثنا عنها شوبنهور بأنها دروس شائقة لها أثرها فى ترقية الذهن البشرى ، وبضع مؤلفات كرواية « شاكونتالا » التى وضعت قبل المسيح بزمن ليس باليسير ، ورواية « جيتا » التى لاتختلف كثيراً عن رواية « هوراس » من حيث تصوير الميول المختلفة ودقة هذا التصوير . ولكن هذه الآداب كانت من الضعف والحصر فى دائرة ضيقة هى الوثنية، بحيث إنها تلاشت فى الجهات التى هيمن عليها الاسلام وخاصة فى القرن الثالث عشر حينما توغل الأتراك المسلمون فى فتوحاتهم فى الهند .

ومهما يكن من شىء ، فالأدب العربى القديم الذى أتحدث عنه أدب - لمى لم يصمد له أدب من الآداب التى عاصرته حتى الأدب اليونانى أساس الآداب الأجنبية الحديثة، والمنهل الذى روت منه واغتنت على حسابه كما يقول رجال الاقتصاد . وليس أدل على هذا الثبات من هذه الظاهرة الغريبة : يغزو اليونان والرومان البلدان والأذهان بالسيف والحضارة والعلم، ويغزو الفرس البلدان والأذهان بالسيف والحضارة والعلم، ويلبثون السنين الطوال يمكنون لأنفسهم ويطبعونهم بطابعهم حتى إذا ماوهنت الأيدى ودال السلطان تنكرت المعارف وعفت الآثار .

وتدول دولة العرب ويتقلص ظل هذه الصولة ، فيظل الأدب العربى بحيث هو ، وتظل الثقافة العربية بحيث هى ، لاتؤثر فيها عوادى الزمن ولا أحداثه .

وبينما البلاد التى يسيطر عليها الأدب العربى يغمرها العلم والثقافة إذا بالغرب يغمره الجهل والأمية ، وإذا بمدرسة تنشأ فى أوائل القرن الثانى عشر يكون همها ترجمة الكتب العربية ، فتترجم كتب الرازى وأبى القاسم الزهراوى، وابن سينا وابن رشد ، وتترجم كتب أبقراط

وأفلاطون وأرسطو وإقليدس من العربية ، وتظل هذه الكتب موضعاً للبحث والدرس خمسة قرون أو تزيد فى الجامعات الأوروبية .

إن هذه الخصومة القائمة حول الأدب العربى ـ قديمه وحديثه ـ يمثلها فريقان : فريق من أبناء الشعوب الموتورين وتجار العقائد ، وفريق من أبناء العربية عاشوا حيناً من الزمن فى الحى اللاتينى ومونبارناس ، وجاءوا يحملون إلينا قشوراً من الآداب الأجنبية ، ويحملون حتى هذه القشور السطحية بلا فهم أو استيعاب ، ويدعون إليها وينتصرون لها فى شىء من الغفلة غير قليل ، فهم لم يدرسوا الأدب العربى ، فاذا حاولوا درسه اقتصروا على بضع نماذج مدرسية قليلة لا تغنى ولا تفيد ، ثم خرجوا من هذه الدراسة يغضون من قدره ويستعدون الشباب عليه . أما الفريق الأول فلا أرى رداً أجمل ولا أقنع من أن أذكر له نبذاً مما قاله أبناء جنسه ، وممن أخلصوا للعلم البحث والدرس :

يقول بترارك شاعر إيطاليا العظيم فى القرن الرابع عشر : « ماذا ! ماذا ! أبعد ديموستين يستطيع شيشرون أن يكون خطيباً ؟ ؟ أو بعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعراً !! وبعد العرب يستطيع أحد أن يكتب ؟؟

« لقد ساوينا الاغريق غالباً وشأوناهم حيناً ، وإذا شأونا الاغريق فقل شأونا جميع الأمم ، ولكن ما عدا العرب ! يا للجنون ! يا للضلال ! يا لعبقرية إيطاليا الراقدة الجامدة ! »(١) .

واسمعوا ما قاله المؤرخ الانجليزى ويلس : « هبّ العرب يظهرون ما خفى من مواهبهم فبهروا العالم بما أوتوه من معجزات العلم ونفخوا فيه من روحهم الحياة والقوة » إلى أن قال : « إن العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل أوروبا إلا عن طريق العرب » . وانظروا إلى ما قاله المسيو ليبرى « Libri » : « محِ العرب من التاريخ تتأخر نهضة الآداب فى أوروبا قروناً طويلة » ، وكثير جداً مثل هذا ذكره الثقات والمنصفون من أبناء الغرب ، تضيق الصفحات عن ذكره .

وأما الفريق الآخر من أبناء العربية ـ وهو الفريق الساخط على أدب بنى جنسه المتبرم به ـ فأنا أرجوه وألح فى الرجاء أن يدرس الأدب العربى دراسة تحليلية عميقة وفقاً للمنهاج العلمى الحديث الذى درسه قبل أن يدرس الأدب الغربى الذى يتغنى به ، وأنا زعيم له بأنه سيجد فى الأدب العربى مادة واسعة ومنهلا ثراراً لمن شاء الوقوف على أسرار الحياة وحقائقها .

وإن لغة وأدبا ـ كما يقول شاعرنا مطران ـ جاء بهما كتاب الله لا يمكن أن يقال إنهما لا يكونان أدبا عالمياً . أما الأدب العربى الحديث فأنا أرجىء الكلام عنه إلى مقال آخر إن شاء الله ؟

محمد على إمام

---

(١) تراجع الرسالة ع ٣

فى الأدب الروسى

قصة الأنف

لنيقولا جوجول (١٨٠٩—١٨٥٢)

(تتمة مانشر فى العدد الماضى)

استولى اليأس والقنوط على كوفاليوف ، فأرخى عينيه ثم نظر فى آخر الصحيفة حيث كان يوجد إعلان عن حفلة راقصة ، وكان على وشك الانفجار من الفرح لما قرأ اسم راقصة فاتنة مشهورة بين أسماء الراقصات ، ومد يده إلى جيبه ليعرف هل كان فيه خمس روبيات ثمناً لتذكرة الدخول ، لأن ضابطاً فى مرتبته ـ كما هو فى زعم كوفاليوف ـ يجب أن يستأجر مقعداً ممتازاً ، ولكن أنفه أفسد عليه سلسلة خياله .

ولقد أحس الكاتب بالألم المر لمركز كوفاليوف الشاذ ، وإذ قد رغب فى عزائه أو تسليته عن حزنه فقد ارتأى أن يبادله الشعور فى كلمات قليلة فقال : « إنى فى الحق فى أشد حالات التأثر من حدوث هذا الحادث الشاذ ، هلا تريد قليلا من النشوق ؟ فهو يشفى الصداع ويبدد الأوجاع، بل إنه يستعمل أيضاً فى الاضطرابات المعوية »، قال الكاتب ذلك وقدم لكوفاليوف علبة النشوق المحلاة بصورة غادة حسناء تلبس قبعة جميلة . وهذا الخروج عن الموضوع آلم كوفاليوف كثيراً فقال بحدة :

« لست أدرى كيف يسوغ لك أن تتفكه على حسابى ! ألست ترى أنى فاقد ذلك العضو الذى به يستنشق الناس ؟ ألا لعنة الله على نشوقك » ، قال ذلك ثم انسحب من مكتب الصحيفة ويكاد الأسى يقتله ، وانصرف إلى حيث يوجد مراقب البوليس .

وفى اللحظة التى دخل فيها كوفاليوف كان المراقب يقول : « آه ! ينبغى أن أغفو لمدة ساعتين »، وإذن فزيارة كوفاليوف لم تكن ملائمة قط ، لذلك استقبل كوفاليوف ببرود وأفهمه أن ما بعد الغذاء ليس بالوقت الملائم للأبحاث والتحريات، وأن الطبيعة نفسها قد هيأت الانسان للاستراحة بعد الأكل، وإن سيداً محترماً لا يجوز أن يفقد أنفه . وهكذا أضاف المراقب إلى ألم كوفاليوف تأنيباً مقذعاً ، ولا شك أن كوفاليوف قد استاء كثيراً إذ كان يتسامح فى كل شىء يمكن أن يقال عنه ، ولكنه لم يكن يتسامح قط فيما يمس مرتبته ولقبه، ولقد كان من أنصار الفكرة التى ترمى إلى وجوب الإغضاء عما يرتكب من الخطأ ضد كبار الضباط، ولكنه لم يقبل أن يهاجم الضباط الصغار، ولقد حيره رد المراقب حتى إنه طوح برأسه وقال فى شمم وأنفة وفى شىء من التعجب لمسلك المراقب:

« يجب على أن ألاحظ أنه بعد ملاحظاتك المقذعة لست أستطيع أن أضيف جديداً ؟ » ، ثم انصرف خارجاً .

ذهب إلى منزله وهو يكاد لا يحس بالأرض التي يمشي عليها ، وكان الظلام قد أرخى سدوله وقد تبدى سكنه موحشاً مقبضاً على أثر هذه الجهود العظيمة التي بذلها ولم يوفق فيها ، ولقد رأى وهو ينسل إلى داره خادمه إيفان راقداً على مرقده القذر وكان يبصق فوق البلاط ، فتقزز كوفاليوف وتميز غيظاً من قذارة خادمه حتى إنه صفعه على جبهته قائلا : « أيها الخنزير! أنت دائماً تفعل مثل هذا » فانتفض إيفان وهب واقفاً واندفع نحو سيده يعينه على خلع ردائه ، وعندما ولج الماجور باب حجرته — وكان مضنى مهموماً — ألقى بنفسه على مقعد وثير ، وبعد ما تأوه مراراً قال:

« أي ربي ! أي إلهي! لماذا حلت بي هذه المصيبة ؟ لو أني فقدت ذراعاً أو ساقاً لكان أهون على نفسي ، أما العيش بدون أنف فهذا يجعلني غير معروف النوع : فلست سمكة ولا دجاجة ولا إنساناً ، ولست أصلح لشيء غير أن أقذف من نافذة بأعلى المنزل ، ولقد كنت أكون مرتاح الضمير لو أنه قطع في معركة حربية أو في مبارزة أو لو كان قد قطع بمحض إرادتي ، ولكن العجيب أني فقدته بدون سبب أو حجة أو مبرر ، فقدته لغير ما سبب البتة » ، وأعقب ذلك صمتاً ثم قال: « مستحيل ! لا! لا يصدق الانسان العاقل أن أنفاً يستقيل من منصبه ويترك وظيفته ، هذا وهم باطل ، ربما أكون قد شربت بدلا من الماء قليلا من الفودكا التي أمسح بها ذقني عقب الحلاقة فهيأت لي الأمور على غير حقيقتها » .

ولكي يتحقق أنه ليس في حلم أخذ يقرص نفسه بشدة بالغة حتى صرخ متألماً ، ولقد أقنعه هذا الصراخ للمرة الأخيرة أنه كان في عالم الحقائق والوقائع لا في عالم الوهم والبطلان ، فاقترب بكل تؤدة واحتراس من المرآة ثم أخذ يختلس — في جبن — نظرة واحدة منها ولكنه لم يعثر على ضالته في موضعها الأصيل ، فتراجع وهو يصيح : « أي صورة فكاهية هذا الوجه ! » .

وفي الحق لم يكن الأمر معقولا أو مقبولا ، ولو أن الذي ضاع كان زراً من أزرار المعطف أو ملعقة فضية أو ساعة أو ما شابه ذلك لكان أمراً مقبولا ، أما وقد ضاع الأنف فهذا غير مفهوم .... وبعد أن فكر في كل الظروف السابقة لفقدانه أنفه وصل الماجور بتفكيره إلى أن أقرب ما يكون إلى الحقيقة أن الذي مهد السبيل لفرار الأنف هو ذلك الشخص الذي أراده أن يتزوج من ابنته وتلك هي مدام بودتاتشين ، وفي الحق كان كوفاليوف يحب أن يغازل ابنتها ، ولكنه كان دائماً يتجنب أن يعدها بخطبته لها ، وعندما كانت أمها تصارحه بأمر زواجه بابنتها كان كوفاليوف يتملص بدهاء منها ، وذلك بأن يكثر من تحياته لها وتشكراته وبقوله إنه ما زال صغير السن وإنه يفضل أن يبقى خمس سنوات أخرى حتى يصير عمره اثنتين وأربعين سنة ، وإذن فقد تكون مدام بودتاتشين قد أصرت على سبيل الانتقام أن تشوه خلقته فأستأجرت لذلك الغرض ساحرة من سحرة الفلاحين . فرض كوفاليوف ذلك الفرض لأنه يستحيل أن الأنف يكون قد قطع بأي

وسيلة كانت ، ذلك لأنه لم يدخل عليه فى حجرته أحد ما ، ولقد حلق له الحلاق إيفان پاكوفلفتش فى يوم الأربعاء ، وطوال الأربعاء ، بل حتى يوم الخميس كله كان الأنف مايزال قابعاً فى موضعه ، هذا شيء يذكره كوفاليوف تمام الذكر ، وفوق هذا لو صح أنه اقتطع اقتطاعاً لشعر أولا بالألم ، ولما اندمل الجرح بهذه السرعة حتى صار وجهه كالفطيرة الطازجة . رسم كوفاليوف جملة خطط لمحاسبة مدام بودتاتشين : فهو يمكنه أن يرفع عليها دعوى فى المحكمة ، ويمكنه أن يذهب إليها بنفسه ويستقدمها معه ، ويمكنه غير ذلك ، وبينما هو كذلك إذ قطعت عليه أفكاره وخططه سلاسل الأضواء التى انبعثت خلال ثقوب الباب منبئة بأن المصباح قد أشعل عند دخول خادمه إيفان ، وسرعان مادخل إيفان وهو يحمل المصباح فأضاء الغرفة كلها ، وكانت أول حركة بدت من جانب كوفاليوف آنئذ هى أن يجذب منديله بسرعة البرق ليحجب به الموضع الذى كان بالأمس يتحلى بالأنف ، حتى لايتفرس خادمه الغبى فى وجهه عند رؤيته له .

وقبل أن ينصرف الخادم إيفان إلى مضجعه سمع صوت شخص غير مألوف وهو يجتاز المدخل الخارجى على حين كان يقول : « هل الماجور كوفاليوف هنا ؟ » ، فقال كوفاليوف : « نعم نعم ! إنه هنا » ، على حين كان مندفعاً بسرعة نحو الباب ليفتحه ، فدخل ضابط من ضباط البوليس حسن الهندام له شاربان متوسطا الطول والكثافة وخدان بارزان ، هو عين ذلك الشخص الذى استوقف الحلاق إيفان پاكوفلفتش عند نهاية الكوبرى كما مر فى صدر القصة .

قال : « هل افتقدت أنفك ياسيدى ؟ »

« نعم » ، (بصوت منخفض حتى لايسمعه خادمه)

« لقد وجد الآن » .

« ماذا تقول ؟ » ، قال الماجور ذلك وكان السرور قد حبس لسانه فلم يستطع إلا أن يحدق النظر بعينين متسعتين إلى ضابط البوليس الواقف أمامه الذى كان ينعكس على شفتيه ووجنتيه ضوء الشمعة الوضاء ، ثم قال : « وكيف ؟ »

« كان ذلك بمصادفة عجيبة ، فقد قبض عليه أثناء الطريق وهو ذاهب إلى ريغا ، وكان يحمل جواز سفر ، باسم مستعار على أنه موظف حكومى ، والعجيب أنى توهمته سيداً محترماً بادىء ذى بدء ، ولكن لحسن الحظ كانت معى نظارتى التى مكنتنى من أن أعرف أنه الأنف ، وأنت تعلم أنى قصير النظر حتى إنك لو وقفت أمامى ، فإنى أشاهد فقط أن لك وجهاً ، ولكنى لا ألحظ أنفك ولا لحيتك ولا أى شيء آخر ، وحماتى لاترى شيئاً أيضاً » .

وكان الفرح قد سد على كوفاليوف كل مشاعره فقال بلهفة : أين ؟ أين ؟ دعنى أعرف ذلك لألحق به الآن .

« لاتربك نفسك ؟ فلعلمى بأنك فى حاجة ماسة إليه قد أحضرته معى ، والشيء الغريب أن الشخص الذى أعانه على الفرار حلاق متشرد بشارع فورنسكى وهو الآن رهين الاعتقال ، وقد

اشتبهت فيه منذ زمن أنه سكير ولص ، وأول أمس فقط سرق حزمة من الأزرار من متجر عظيم ..... هاك أنفك كما كان بالضبط من غير زيادة ولا نقصان » ، قال ضابط البوليس ذلك على حين كان يخرج الأنف من جيبه . « هو ، هو ، بكل تأكيد ، من غير شك ، لاريب .... يجب أن تتناول معي هذا المساء كوباً من الشاى » .

« يسرني ذلك كثيراً ولكني قد لا أستطيع ذلك الآن ، إذ يجب على أن أتوجه إلى ملجأ الأحداث ..... لقد صارت أثمان الحاجيات مرتفعة و عندى فى المنزل حماتي وأولادي وأكبرهم سناً تبدو عليه ملامح النجابة ودلائل الأمل ، فهو ذكي جداً ولكن ليس لدينا مال يقوم بتربيته .... » ، قال ذلك ثم خرج . ولقد ظل كوفاليوف بعد خروج رجل البوليس فى حالة ذهول تام زمناً طويلا ، ولما استعاد رشده تناول بغاية الاعتناء ذلك الأنف المعاد إليه بين كفيه وهو يلصقهما الواحد بالآخر ، وصار يفحص الأنف بانتباه ويقظة .

« نعم هو بعينه ، هو بكل تأكيد ، وهذا هو الدمل الذى برز فى الجانب الأيسر أمس » . قال ذلك وهو فاغر فاه ضحكا وسروراً . ولكن ليس فى الوجود شيء يدوم طويلا ، فإن سرور كوفاليوف لم يكن عظيما فى اللحظة التالية ، وفى اللحظة التى تلتها كان أقل أيضاً ، وأخيراً عاد إليه عبوسه الأول ، فقد كان كوفاليوف مثل الماء الذى ترتسم على سطحه حلقات متعددة عند سقوط حجر فيه ، ثم لا يلبث أن يعود إلى حالته الأولى إذ تتبدد تلك الحلقات رويداً رويداً .

فكر كوفاليوف فوجد أن المشكلة لم يحل إلا جزؤها : الأنف قد وجد وأعيد إليه ، ولكن المهم أن يعاد إلى موضعه : (وما قيمة ذلك إذا لم يثبت فى موضعه ؟) كذلك تساءل كوفاليوف فيما بينه وبين نفسه .

وأخيراً اندفع إلى المنضدة وأزاح المرآة إلى أعلى وأراد أن يحكم وضع الأنف فى وسط الوجه ، وكانت يداه ترتجفان ، ومع ذلك فقد وضعه فى موضعه الأول تماماً إلا أن الأنف لم يلبث فى مكانه قط ، فحاذاه بشفتيه وأخذ ينفخ فى باطنه بنفسه الحار علّه يدفأ فيقبل الالتحام ، ثم أعاد وضعه إلى المكان الخالى بين خديه ولكن الأنف لم يلتصق ، فخاطبه قائلا : « هلم هلم التصق أيها الجرم » إلا أن الأنف كان يبدو كأنه لوح من الخشب ، وسقط من يديه فوق المنضدة فانبعث من سقوطه صوت يشبه فرقعة الزجاجة المسدودة عند فتحها ، فرفعه ثم قال : « يجوز أنه لا يثبت فى موضعه مرة ثانية » ، وكان كلما أعاده إلى موضعه يؤوب من التجربة بالفشل والخسران .

فاستدعى إليه خادمه إيفان وأوفده إلى طبيب كان يستأجر الدور الأول من نفس المنزل ، وكان الطبيب رجلا ظريفاً وسيما له شاربان أسودان وزوجة حديثة ، وكان يأكل التفاح الطازج فى كل صباح ويحفظ فمه على الدوام نظيفاً ويمسحه كل صباح مستعملا خمس فرجونات مختلفات ، وكان يستغرق فى مسحه نحو ثلاثة أرباع الساعة تقريباً ، وجاء هذا الطبيب فى الحال ، وفى حين كان يسأله الطبيب عن الوقت الذى ألمت به هذه الملمة ، كان أيضاً يقبض على ذقن المأجور كوفاليوف

بيد ويلمس موضع الأنف بيده الأخرى ؛ فانتزع الماجور رأسه بسرعة حتى إنه ارتطم بالحائط فطمأنه الطبيب ونصحه بأن لايجـذب رأسه هـكذا ، ثم طلب إليه أن يدير أولا رأسه إلى اليمين ؛ وحين أداره لمس الطبيب الموضع الذى كان الأنف به فقال كوفاليوف : « أوه!أوه»، ثم طلب إليه أن يدير رأسه إلى اليسار ففعل ولمسه الطبيب فى موضع أنفه على كره منه ،وأخيراً نقره فى ذلك الموضع حتى إن كوفاليوف جذب بسرعة البرق رأسه فارتطم ثانيـة بالحائط ، وبعد أن قام الطبيب بهذه المشاهدة هز رأسه وقال :

« لا ، لا يمكن ، الأفضل لك أن تبقى على ما أنت عليه الآن ، إذ لو أعيد الأنف لصار وبالا عليك ، قد يمكن أن يرشق فى موضعه إلا أننى لاأستطيع ذلك فى الحال ؛ على أنى أؤكد لك أن فى إعادته وبالا عليك » .

« جميل ما قلت ، لـكن كيف أعيش بدون أنف ؟ ليس يمكن أن تـكون الأمور شراً مما هى الآن ، لست أستطيع أن أطلع أحداً من الناس على شكلى وأنا بهذا الوجه الـكاريكاتورى ، لى أصدقاء عديدون ؛ فمثـلا اليوم كان ينبغى لى أن أكون فى حفلتين مسائيتين ، إذ أنا أعرف شخصيات بارزة كثيرة ؛ فأعرف مدام تشهتارف زوجة ذلك الضابط الخطير ، ومدام بودتاتشين أرملة ضابط خطير آخر.... ولو أنها لعبت دوراً ضدى إلا أننى لن أمسها إلا عن طريق البوليس، بربك أعنى على إعادته .... هلا توجد طرق لذلك ؟ وحتى لو لم يـكن تثبيته جيدا ، فأنا أقبل إلصاقه بأى شكل كان ؛ إذ طالما يثبت فى موضعه فإنى أستطيع أن أسنده بيدى فى الظروف الحرجة ، ولن أرقص بحال من الأحوال حتى لايصدمه راقص فيقلبه ، أما فى مايختص بأجرك فثق بأن لك منى كل ماتسمح به ظروفى ».

فأجابه الطبيب فى صوت ليس بالمرتفع ولا بالمنخفض ولـكنه مقنع جذاب :« صدقنى أنه لا يمـكن أن يحفزنى إلى العمل أدنى باعث من بواعث الشفقة لأن ذلك ينافى مبادىء علمى ،وطبعاً كنت أستطيع أن أرد إليك أنفك ولـكن أؤكد لك بشرفى أن فى ذلك وبالا عليك ،وأفضل شىء أن تنتظر فعل الطبيعة وصنيعها بك ..... اغسل موضع الأنف بالماء الساخن دائماً ، وأنا أؤكد لك بأنك ستكون فى صحة جيدة ، وأنصحك أن تضع أنفك فى زجاجة صغيرة مع ملعقتين من الفودكا ؛ وحينئذ تستطيع أن تبيعـه بمبلغ عظيم من النقود ، وربما أخذته أنا لنفسى إذا لم تغل فى ثمنـه » .

فقال الماجور كوفاليوف ، وقد تملكه اليأس والحنق : « لا ! لا ! لا ! أنا لا أبيعه بأى ثمن مهما غلا ، والأفضل عندى أن يفقد بدلا من أن يباع ويشرى ويوضع موضع المساومة» .

فأجابه الطبيب وهو يهم بالخروج : « معذرة ! كنت أحب أن أقدم لك معونتى ،وعلى كل حال فأنت تعلم أنى بذلت قصارى جهدى » ، قال ذلك ثم سار إلى الباب منصرفاً .

وفى اليوم التالى قبل أن يرفع كوفاليوف شـكواه إلى البوليس صمم على أن يكتب رسالة

إلى مدام بودتاتشين ليعرف ما إذا كانت على استعداد أن ترد إليه حاجته المسلوبة فكتب إليها ما يأتي:

سيدتي العزيزة الكساندرة جريجوريفنا:

لست أستطيع أن أفهم سلوكك الغريب حيالي؟ ومهما يكن من شيء فأنا أؤكد لك أنك لن تربحي مثقال ذرة مما فعلت، كما أنك لن تتقدمي قيد شعرة في سبيل إرغامك إياي على الزواج من ابنتك. صديقتي! ان قلت لك إن فعلتك الشنعاء المتعلقة بأنفي لم تعد بعد خافية علي، كما لم يعد خافياً علي أنك وحدك الشخص المسئول عن ذلك، فان فرار المذكور آنفاً من موضعه الطبيعي، ثم تخفيه تارة في ثوب موظف حكومي، وتارة في صورته المعتادة ليس الا نتيجة للسحر الذي قمت به أنت أو قام به أولئك الأجراء الذين يحترفون هذه الحرفة الشريفة مثلك. وأنا أحس بانه من واجبي أن أنذرك قبل إبلاغ أي جهة أخرى، فاذا لم يكن الانف المذكور في موضعه اليوم فسأضطر إلى الاستعانة بحماية القانون.

ولي عظيم الشرف — مهما يكن الأمر — أن أكون خادمك المقدر لعملك؟

أفلاطن كوفاليوف

سيدي العزيز أفلاطن كوزمتش.

لقد أدهشني خطابك كثيراً جداً، ويجب علي أن أصارحك بأني لم أكن أتوقع مثله منك، وعلى الخصوص ما كنت أتوقع تخرصاتك علي، وأؤكد لك أني ما استقبلت قط ذلك الموظف الحكومي في منزلي، كما أشرت في خطابك، لا متخفيا ولا في لباسه العادي. حقاً لقد زارني إيفان إيفانوفتش بوتانتشيكوف، ومع أنه طلب مني يد ابنتي — وهو كما تعلم ذلك الشخص الحسن السلوك الكثير العلم الوافر الذكاء — إلا أنني لم أشجعه قط في أمله. ثم إنك تشير أيضاً إلى أنفك، فاذا أردتني أن أفهم من ذلك أنك تتوهم بأني أرفع الأنف بشمم، أعني أنني أرفض خطوبتك باحتقار، فلا شك أن قولك مستهجن إذا أنك تعلم أني كنت وسأكون دائما على نقيض ذلك. فاذا كنت كلفاً بابنتي وواضعاً نصب عينيك الزواج منها فأنا على استعداد لأن أعاونك حالا، لأن هذا كان على الدوام أهم رغائبي، وسأظل دائما مستعدة لخدمتك؟

الكساندره بودتاتشين

فقال كوفاليوف بعد أن اطلع على رسالتها: (لا، الحق إنها لا تستحق اللوم، لا يمكن ذلك إذ الخطاب مكتوب كما لو كان صادر عن شخص بريء لا علم له بالجريمة .... ولكن بأي وسيلة حدث هذا الحادث المشئوم؟ ذاك سر لم أمط عنه نقابا، قال ذلك على حين سقطت يداه الى جانبيه لما أعيته الحيل وأضناه التفكير.

وكانت قصة الأنف قد ذاعت في كل أطراف المدينة، وفيها زيادات وإضافات لا غنى للناس عن انتحالها.

وفي هذا الوقت عينه شغلت أفكار الناس قاطبة بتلك التجارب العجيبة التي أجريت في

مسائل التنويم المغناطيسى ، وفوق هذا كانت قصة المقعد الرقاص الذى يرقص فى شارع «كونيوشنى» مازالت عالقة بالأذهان لقرب عهدها، وإذن فليس عجيباً أن نرى الناس بدءوا يعتقدون أن أنف كوفاليوف اعتزل وظيفته وكان يسير فى ميدان نفسكى فى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان الناس المستطلعون يتجمهرون هناك كل يوم، وقيل مرة أن الأنف فى متجر يونكر ، فكنت ترى الجماهير أكداساً عند باب هذا المتجر حتى إن البوليس اضطر أن يتدخل فى أمرها، ولقد انتهز هذا الزحام أحد المتفرجين ـ وهو رجل كان يبيع الحلوى والمأكولات عند أبواب دور التمثيل ـ فصنع مقاعد خشبية ليقف عليها من شاء من الجماهير مقابل أجر قدره ثمانية كوبكاً لكل مقعد . وقد خرج واحد من الضباط العظام من منزله مبكرا بقصد التفرج، فشق طريقه وسط الزحام بشق الانفس حتى وصل إلى المتجر ولكنه امتلأ حنقاً وغيظاً فى الحال ، لأنه بدلا من أن يرى الأنف المزعوم رأى نفس الصديرى الصوفى المعتاد وإلى جانبه صورة تمثل فتاة رشيقة تسحب جوربها إلى أعلى ، فى حين كان شاب أنيق يسترق النظرات من وراء شجرة قريبة ، وتلك صورة تقوم فى موضعها ذاك منذ أكثر من عشر سنوات ، فقال بحنق وشو بهم بالانصراف: « كيف ينقاد الناس لمثل هذه القصص السخيفة التى لا تصدق؟ »، ثم ذاعت إشاعة أخرى بأن أنف الماجور ليس فى ميدان نفسكى، ولكنه يتجول فى حديقة « تافرتشسكى » ، وأنه كان هناك منذ زمن بعيد ، وأنه لما كان « هرزف ميرزا » يسكن هناك كان يدهش جداً لمثل هذه العجيبة . فيمم شطر تلك الحديقة كثير من طلاب أكادمية الجراحة ، وكتبت سيدة من الطبقة الراقية خطاباً إلى مدير الحديقة ترجوه فيه أن يرى أبناءها تلك الظاهرة العجيبة ؛ وأن يشرحها لهم إذا أمكن شرحاً وافياً .

ولقد صار كل الذين يحضرون المجتمعات الساهرة ـ بقصد الاتصال بالفتيات الجميلات وإدخال السرور إلى قلوبهن ـ جد شاكرين لمثل هذا الحادث الذى أتاح لهم أن يتندروا به ، لأن ثروتهم القصصية كانت قد بددت فأفلسوا من الأقاصيص والأحاجى. ولم يستأ من هذا الحادث غير جماعة صغيرة من ذوى الرأى . قال واحد منهم إنه لا يفهم كيف أن الناس فى هذا العصر المستنير بضياء العلم والمعرفة يذيعون بإيمان واعتقاد تلك السخافات المختلفة ؛ وأعجب من هذا أن الحكومة تسكت حيث كان يجب الكلام . وهذا السيد على مايظهر هو من أولئك الذين يريدون الحكومة أن تتدخل فى كل شىء حتى فى النزاع اليومى الذى يحدث بين الزوجات والأزواج .... وهنا أيضاً ذهب الحادث فى طيات النسيان ولم يعرف أحد ماذا جرى بعد ذلك .

— ٣ —

إن فى العالم متسعاً لكل السخافات ، وأحيانا لا تمت تلك السخافات إلى الحقيقة بأية صلة؛

فذلك الأنف الذي كان يتجول بعربة في زى رسمي ، والذى أقام المدينـة وأقعدها عاد إلى سابق موضعه بين وجنتى الماجور كوفاليوف كأن لم يحدث شيء هناك،حدث هذا فى السابع من ابريل فقـد استيقظ الماجور كوفاليوف ذلك الصباح وتناول المرآة صدفة فرأى أنفه . أحكم وضع يده عليه فوجد أنه أنفه لاشك فيه ، فأخذته نوبة من السرور وقهقه كثيراً وأخذ يرقص حافى القدمين فى حجرته ولم يصده عن تهريجه غير دخول خادمه إيفان . أمرخادمه أن يحضر له ماءً فى الحال ، ثم أخذ يغسل وجهه وفى أثناء ذلك عاود النظر إلى المرآة مراراً فكان يجد الأنف فى موضعه ، ثم مسح وجهه بمنشفة واختلس أثناء ذلك جملة نظرات فى المرآة ليتأكد من وجود الأنف .

« انظر ياإيفان كنت متوهماً أن دملا فوق أنفى » كذلك قال كوفاليوف لخادمه على حين كان يقول فى نفسه: « كم أخشى أن يجيبنى إيفان بقوله لاياسيدى ، لادمل هناك ولاأنف »

ولكن إيفان قال : « لا شيء هناك ولا دمل ، أنفك ياسيدى لابأس به » .

فقال الماجور فى نفسه : « لقد بدد الله الظلام »

وفى هذه اللحظة كان إيفان ياكوفلفتش الحلاق يدفع باب الغرفة ليدخل ، ولكنه كان كالقط الذى يريد أن يدخل حجرة خرج منها طريداً لسرقة ارتكبها. فلما لمح طرفه الماجور كوفاليوف صاح فى وجهه : « أخبرنى أولا هل يداك نظيفتان » ؟

فقال الحلاق : « نعم »

« أنت تكذب ! »

« لا وربى ياسيدى، هما نظيفتان ».

« حسناً ، هلم احلق »

وجلس الماجور كوفاليوف إلى مقعد ثم طرح إيفان ياكوفلفتش عليه منشفة ، وفى قليل من الزمن غطى كل ذقنه وبعض خديه بالصابون

هل عيناى بخير ؟ قال ذلك إيفان ياكوفلفتش فى نفسه ؟ على حين كان يدير رأس زبونه من اليمين إلى اليسار وبالعكس وهو يتأمل الأنف ملياً ثم قال أيضاً: « الأنف هوهو بكل تأكيد ولكن ما معنى ذلك الحادث ؟ » ثم ابتعد قليلا وكان يدقق النظر فيه أيضاً وأخيراً رفع يده بكل حذر وبطء ليلمس طرف الأنف .

فقال كوفاليوف على الفور: « حاسب . حاسب . حاسب » فتراخت يد إيفان ياكوفلفتش، وتراجعت بسرعة وامتلأ هو بالرعب والاضطراب بشكل لم يسبق له مثيل – وبدأ أخيراً أن يجرحه بالموسى تحت ذقنه لأنه يصعب على إيفان ياكوفلفتش أن يحكم وضع موساه إذا لم يكن يقبض جيداً على عضو الشم . ومع ذلك فقد غرس أصابعه فى خد كوفاليوف وبذلك تغلب على الصعوبة وأنجز مهمته الشاقة .

فلما انتهت الحلاقة شرع كوفاليوف فى ارتداء ملابسه على وجه السرعة ثم امتطى عربة وتوجه نحو الحلوانى . وقبل أن يدخل الباب أخذ يصيح : « ياجرسون! كوب من الكاكاو » ، واختلس فى اللحظة عينها نظرة فى المرآة فرأى الأنف ، وحينئذ أشاح بوجهه من فرط السرور ثم رفع عينه ببطء كما يفعل الارستقراط من الناس فوقعت عيناه على اثنين من ضباط الجيش ، كان أنف أحدهما لا يكبر على الزر حجماً ، فخيل إلى الماجور كوفاليوف أن يحذر ذلك الضابط من محاولة هروب أنفه واعترامه الاستقالة من مركزه ، إلا أنه تمالك نفسه وانشغل بمراجعة التحقق من أنفه .

ثم انصرف نحو المصلحة الحكومية التى تقدم إليها للتوظف كمساعد للحاكم أو إذا لم يوفق فى ذلك فكرئيس للكتبة . وعند مروره بحجرة الانتظار نظر فى المرآة لآخر مرة فاطمأن لوجود الأنف ، ثم شق طريقه إلى ماجور آخر كان من دأبه أن يتهكم على كل شىء . وفى أثناء ذهابه إليه كان يقول فى نفسه : « إذا لم ينفجر الماجور ضاحكا عند رؤيته لى فذلك تأكيد قاطع بأن كل شىء فى موضعه » ، إلا أن الماجور الساخر لم يقل شيئاً من ذلك ، فقال كوفاليوف فى نفسه : « حسناً ، حسناً جداً . الحمد لله » ، ثم إنه صادف فى طريقه مدام بودتاتشين مع ابنتها فأكثر من التحية والانحناء لهما فحيياه بنوع من الدهشة والاغتباط معاً جعله يزداد اطمئناناً بأن كل شىء فى موضعه سليم برىء من النقص . وتحدث معهما طويلا ، وفى أثناء ذلك أخرج علبة نشوقه ثم وضع السعوط فى خيشوميه سويا ، متعمداً ذلك حتى لا يهمل مراجعتها .

ومنذ ذاك الوقت أخذ الماجور كوفاليوف يتجول فى ميدان نفسكى ويرتاد المسارح كأن لم يكن حدث هناك . كذلك الأنف فقد ربض فى موضعه من غير انحراف ولا اعوجاج كأن لم يكن قد فارق كوفاليوف قط . وبذلك كان الناس يرون الماجور ضاحكاً نشيطاً مطارداً لكل الفتيات الحسان .

تلك هى الحادثة الغريبة التى وقعت فيما مضى فى العاصمة الشمالية لامبراطوريتنا الشاسعة ، والآن فقط عند ما نتأملها ندرك أنها تشتمل على أشياء لا يمكن وقوعها البتة ، فاذا تجاهلنا تلك الحقيقة وهى أن أنفاً يعتزل موضعه ويظهر فى أمكنة مختلفة فى زى رسمى إنما هى محض خرافة ! فان هناك مالا يمكن تجاهله ، وهو كيف أن كوفاليوف لم يدرك أنه ليس من اللائق أن يعلن عن خرافة فى الصحف السيارة ؟ ثم كيف وصل الأنف إلى الرغيف ؟ وما شأن إيفان ياكوفلفتش به ؟ لست أستطيع أن أفهم ذلك .

ولكن أبعد الأشياء غرابة وبعداً عن التصديق هو أن الكتاب يتناولون هذا الحادث بأقلامهم ، وأنا أصرح بأن هذا فوق مداركى ، فالحادث قبل كل شىء لا فائدة فيه للوطن ، وثانياً ثم ثانياً أيضاً لا فائدة فيه بالمرة .. وفى الحق لست أجد ما أقوله عنه ... ومع ذلك فعندما تمعن النظر فيه فستجد فيه حتماً بعض الشىء . ومهما تقول الناس فإن مثل هذا الحادث يحدث حقيقة — لا كثيراً — ولكنه يحدث والسلام ، يحدث فى أوهام الجماهير وعند ضعفاء التقدير والتفكير .

التلقيح عند الحيوان

بقلم الأستاذ محمد محمد السيد
المدرس بمدرسة طنطا الثانوية

[البويضة والحيوان المنوى — أعضاء التناسل — التلقيح]

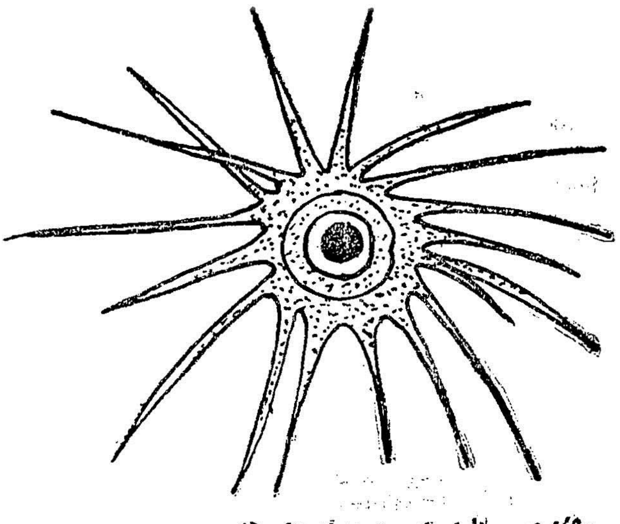
البويضة والحيوان المنوى : بين ملايين الخلايا التى تكون الجسم توجد خلايا لاوظيفة تؤديها لمنفعة الكائن الحى نفسه، بل تعيش لمصلحة النوع لا لمصلحة الأفراد، وتلك هى الخلايا التناسلية .

والخلايا التناسلية أو جراثيم التلقيح (وتسمى أيضاً جامتات) هى البويضة فى الأنثى والحيوان المنوى الذكر، وهما باتحادهما يكونان الخلية الملحقة التى إذا وجدت وسطاً وغذاء ملائمين تتطور وتنمو مكونة الجنين .

ويتركب الحيوان المنوى — لأغلب الحيوانات (انظر شكل ٥٠) — من رأس ، الجزء الأكبر منه نواة، ومن ذيل طويل بواسطته يتحرك



شكل ٥٠ الحيوان المنوى للإنسان فى وضعين مختلفين مكبراً جداً

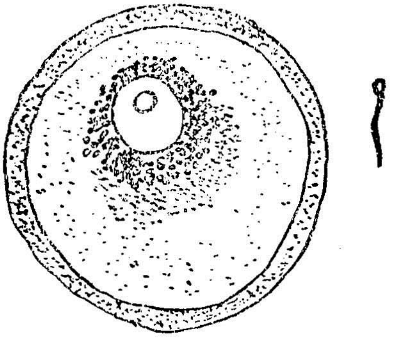


شكل ٥١ الحيوان المنوى لأغلب الحيوانات القشرية وترى النواة فى الوسط مكبراً جداً

الحيوان المنوى حتى يصل للبويضة . ويوجد بين الرأس والذيل عنق له أهمية خاصة فى حمل بويضة

الأنثى على الانقسام وتكوين الجنين . ويبلغ طول الحيوان المنوى كله نحو ١ على ٢٠ من المليمترات .

وفى الحيوانات القشرية نجد الحيوان المنوى (شكل ٥١) له شكل كروى، وهو ذو زوائد كثيرة بواسطتها يتحرك متجهاً نحو البويضة .



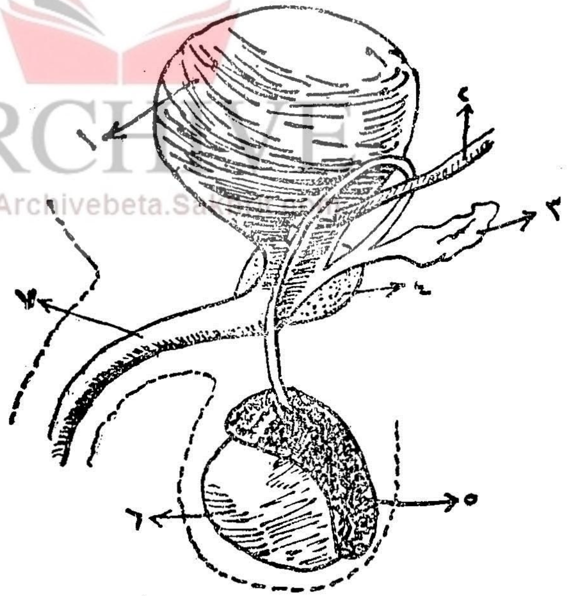
شكل ٥٢ البويضة والحيوان المنوى للإنسان مكبرين (بغير النسبة)

أما البويضة (شكل ٥٢) فخلية كبيرة كروية الشكل؛ وهى فى أغلب الحيوانات الثديية تبلغ نحو ١ على ٥ من المليمتر قطراً . وتحتوى خلاف النواة على جانب من كريات زلالية لتتغذى عليها فى الأطوار الأولى من النمو.

أعضاء التناسل : يتركب الجهاز التناسلى للذكور فى الحيوانات الراقية (شكل ٥٢) من زوج من الخصى، حيث تفرز الحيوانات المنوية ، ومن قنوات لمرور السائل المنوى إلى حيث يلقح بويضات الأنثى، ومن عديد من الغدد تفرز سوائل لها أهمية فى تنشيط الحيوانات المنوية لتؤدى وظيفتها .

والخصية تتركب أساسياً من كتل من أنابيب ملتوية مبطنة بخلايا هى التى بانقسامها تكون الحيوانات المنوية . وبين هذه الأنابيب الملتوية توجد خلايا أخرى تفرز سوائل لها أهمية فى تكوين المميزات الجنسية للذكر كنمو شعر الذقن والشارب وغيره.

وتمر الحيوانات المنوية عقب تكونها إلى الحويصلة المنوية حيث تخزن إلى الوقت المناسب فإذا احتيج إليها اندفعت إلى القناة التناسلية البولية بعد أن تختلط بسوائل تفرزها غدد خاصة. وهذه الإفرازات تنشط الحيوانات المنوية



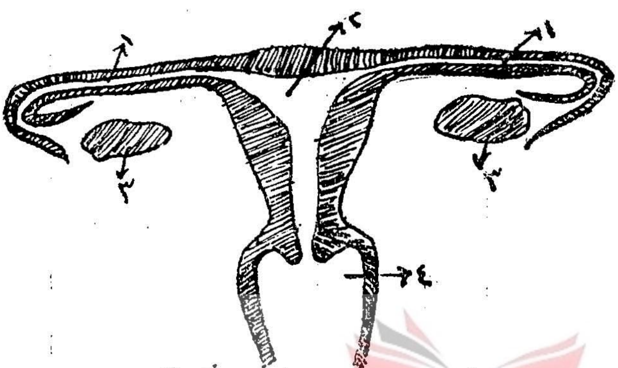
شكل ٥٣ أعضاء تناسل ذكر حيوان ثديى راقى
١) مثانة البول ٢) الحالب ٣) الحويصلة المنوية ٤) غدة البروستاتا
٥) مقطع فى الخصية ٦) الخصية ٧) القناة التناسلية البولية

تغذيها حتى تقوم بواجبها .

ويوجد إسراف كثير فى صنع الحيوانات المنوية . ففى كل عملية تلقيح يستهلك لا أقل

من مائتى مليون حيوان منوى لتنتهى إلى أن يلقح واحد منها فقط بويضة الأنثى . وفى أحوال قليلة يحتاج لأكثر من واحد إذا كانت البويضات المعدة للتلقيح كثيرة .

أما الجهاز التناسلى الأنثى (شكل ٥٤) فيتركب (فى الحيوانات الثديية الراقية) من مبيضين يقابلان الخصى فى الوضع بالنسبة للجسم ، ومن قناتين توصلان إلى غرفة تعرف بالرحم حيث تنقسم البويضة من تلقيحها مكونة الجنين .



شكل ٥٤ مقطع فى أعضاء تناسل أنثى حيوان ثديى راقى
١) قناة المبيض ٢) الرحم ٣) المبيض ٤) المهبل

والمبيض شبكى التركيب ، ويحتوى أيضاً على الخلايا التى لإفرازاتها أهمية فى تكوين المميزات الجنسية الثانوية .
ويوجد فى المبيض البويضات فى حالات مختلفة من النمو يحيط بكل بويضة عدد من الخلايا للعناية بها وتغذيتها ؛ وكلما تقدمت البويضة فى العمر ازداد تعقد الخلايا المحيطة بها .

وتنتهى قناة المبيض من أحد الطرفين بالرحم ، ومن الطرف الآخر بقمع لاستقبال البويضات من المبيض ، وهذا القمع لا يحيط بالمبيض تماماً ، ولذلك يحدث أحياناً أن تسقط البويضات المتكونة فى تجويف الجسم بدل مرورها فى القناة . وفى أحوال نادرة جداً يتم تلقيح البويضة بأحد الحيوانات المنوية ـ وهى فى هذا الموضع الشاذ ـ فيتسبب من انقسامها ونموها متاعب جمة للأم ؛ ولهذا كان الجهاز التناسلى لأنثى الحيوانات الثديية الراقية (ومنها أنثى الإنسان) غير كامل من هذه الوجهة ، وأحسن منه أجهزة بعض حيوانات ثديية أخرى كالكلب ؛ فإن المبايض ونهاية قنواتها مغلفة كلها بنسيج متواصل يجعل سقوط البويضات فى التجويف البطنى مستحيلا .

وجدران الرحم سميكة والنسيج المبطنة به فى الحيوانات الثديية العليا يتمزق مرة كل شهر ويتكون بدله نسيج جديد ؛ وهذه العملية يتسبب عنها الحيض الشهرى عند النساء وإناث الحيوانات العليا .

وأجهزة التناسل للحيوانات الأخرى تختلف عن ذلك تركيباً ؛ ففى الطيور والزواحف مثلا تنصب البويضات أو السائل المنوى مع البول والمواد البرازية فى تجويف واحد يعرف بالكوكا أو المجمع ؛ والبيض هنا ليس صغيراً ، بل هو كبير محاط بقشرة صلبة يحتوى على الجرثومة

الملقحة وكمية كبيرة من الطعام المخزون، ولا يوجد للبيض عادة موضع فى الجسم لينمو فيه ويتحول إلى جنين، بل البيض يوضع ويحضن خارج جسم الأم، ولو أن هناك بعض حيوانات شاذة .

التلقيح : يتم التلقيح باتحاد الحيوان المنوى بالبويضة، ورغم كثرة عدد الحيوانات المنوية فإن أغلبها يموت فى طريقه إلى البويضة ، ولا يفوز بتلقيحها إلا حيوان منوى واحد هو الذى يتمكن من اختراق جدارها بواسطة رأسه، ويتلاشى الذيل ويذبل بمجرد دخول الرأس فى البويضة ، وتختفى (سيتوبلاسمة) الحيوان المنوى فى (سيتوبلاسمة) البويضة وتندمج بها، أما النواة (الرأس) فتتحرك إلى نواة البويضة وتندمج بها اندماجا تاماً، ويتكون ما يسمى بالزيجوت (البويضة الملقحة) .

وباندماج النواتين يعود عدد (الكروموسات) فى النواة الجديدة العدد العادى فى نوى الجسم ، ويلاحظ أن عدد الكروموسات فى كل من جرثومتى التلقيح نصف العدد الأصلى (أو تقريباً النصف) وبالتلقيح يعود العدد كاملاً .

وبهذا الاندماج يرث الجنين من كل من والديه بعض صفاته ، وبذلك يوجد تنوع أكثر مما كان فى توزيع الصفات المختلفة، وهذا يجعل احتمالات اختلاف النسل عن والديه احتمالا أكبر، وتسنح فرص جديدة لتحسين النوع بتزاوج أفراد صالحة قوية بأخرى قوية .

والتلقيح فى الحيوانات الدنيا يحدث خارج الجسم، ففى بعض الأصداف يلقى الذكر السائل المنوى فى الماء ، وكذلك تلقى الأنثى بويضاتها ويصبح التلقيح راجعاً للاتفاق، فإذا صادف مرور تيار مائى يحمل شيئاً من الحيوانات المنوية على البويضات تم التلقيح .

وفى الأسماك تتخذ احتياطات أدق لضمان التلقيح، فالأنثى تضع البيض عادة فى حفر تحفرها فى قاع النهر، فى حين تندفع الذكور وراءها ملقية السائل المنوى على البيض ليتم تلقيحه، وهى تتقاتل وتتنافس وراء الأنثى لهذه الغاية .

وفى الضفادع يتم التلقيح بطريقة فريدة، ففى موسم التلقيح (أوائل الربيع) تنتقل الإناث بعد خروجها من مخبئها الشتوى إلى البرك لوضع البيض، فتقبض عليها الذكور من الخلف بلف الأطراف الأمامية حولها ، وهى تقبض عليها بشدة - بواسطة نمو خاص فى الأصابع الأمامية يحدث خاصة فى هذا الفصل- حتى لا يمكن أن يفرق طارىء بينهما ، وربما يستمر الذكر قابضاً عليها أياماً كثيرة أو أسابيع حتى تلقى البيض فى الماء فيصب الذكر السائل المنوى عليه أثناء خروجه وبذا يتم تلقيحه .

وفى الحيوانات الأخرى يتم التلقيح داخل الجسم ، فقد رأينا كيف تتلقح بويضات الدودة الأرضية بواسطة سائل منوى من دودة أخرى رغم كونها خنثى ، ويتم التلقيح الداخلى

عادة بدخول عضو خاص من الذكر فى أعضاء الأنثى التناسلية يحمل إليها السائل المنوى حيث يتصل بالبويضات ويلقحها. وفى بعض الأصداف يلقى الذكر السائل المنوى فى الماء فتحمله تيارات مائية إلى داخل جسم الأنثى (إذ توجد أهداب تتحرك لإدخال الماء باستمرار فى الجسم) وهناك يتم التلقيح.

وفى العناكب يوجد السائل المنوى فى الأطراف الأمامية، وهذه تحمله إلى داخل جسم الأنثى.

وفى بعض الأخطبوط يوجد السائل المنوى فى إحدى أذرع الذكر، وهو يدخل هذه الذراع فى تجويف الأنثى ثم تنفصل الذراع عن جسم الذكر ويتم بواسطتها التلقيح.

وتحتفظ الحيوانات المنوية بحيويتها مدة طويلة، ففى إناث النمل والنحل يتم التلقيح مرة واحدة فى موسم خاص، وفى هذه المرة تخزن الأنثى السائل المنوى فى كيس خاص وهى تلقح منه البيض الذى تضعه وفق إرادتها. وقد شوهدت بعض ملكات النحل تضع بيضاً ملقحاً رغم مرور ثلاث سنوات على عملية التلقيح، أى أن الحيوانات المنوية احتفظت بحيويتها طول تلك المدة.

وتختلف مدة التلقيح، فقد تتم هذه العملية ببطء مستمر عدة ساعات، كما فى بعض الحشرات، وقد لا تتجاوز المدة أكثر من ثوان قليلة؟

محمد محمد السيد

قصة رمزية

المجـــــــرم

بقلم الأستاذ رشدى ميخائيل السيسى

امسكوا اللص !! اللص ! اللص ! امسكوه !!

انبعثت هذه الأصوات من قصر رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية بالقاهرة ومدير إحدى البيوتات المالية الكبيرة ، فهب جميع فقراء الشارع وعامته وتقاطروا إلى حيث مبعث الصوت ، وإذ عرفوا مصدره سارعوا للتنفيذ وكل منهم يبغى أن يربح فضل القبض على المجرم...

وخلف إحدى بوابات حديقة القصر عثروا على شاب وسيم رغم شحوب وجهه وضمور بدنه ، عليه أثواب مهلهلة أو أطمار بالية ، وكان يرتجف ارتجافا ولا يكاد يقوى على حمل نفسه، فهلل العامة لهذا الفوز وكبروا ثم أخذوا بخناق المجرم... وأراد الشاب أن يتكلم فأرتج عليه الكلام وصمت إذ لم يلمح على أى فرد ممن يحيطون به علائم عطف أو إشفاق.

***

قال رءوف بك غاضباً : ألم تجد من تسرقه غيرى، وأنا المحسن الذى لا أجد فقيراً «مستحقاً» إلا أعطيته ، أو منكوبا إلا أقلته من عثرته ، أو فريسة لكوارث الزمن إلا أنقذته ؟ أهذا جزاء من كرس وقته وجهوده لخدمة الانسانية وتخفيف ويلاتها ؟!.. تكلم ، أليس لديك ما تجيب به ؟ ولكن أى جواب بعد ما حدث وبعد ما ضبطوك متلبساً بجريمة السرقة !! أتنكر، إه ؟ لست ضعيفاً إلى هذا الحد ...

فجاهد « المجرم » جهاداً شديداً حتى تيسر له أن ينطق، إنما فى ألفاظ مرتعشة خافتة فيها ألم ويأس ، وبصوت كأنه ـ لفرط ضعفه ـ صادر عن أعماق القبور : أمى تحتضر ياسيدى ، وأنا أموت جوعا ، ولقد طرقت بابكم الكريم ـ من قبل ـ أسأل عملا أو إحسانا ، فرددت خائباً ..

فقال رءوف بك ـ وقد ارتسمت القسوة على وجهه بصورة واضحة رهيبة ـ : وإذن فأنت تثأر لنفسك منى !! ياللخائن المجرم !! نعم مثلك من يرد خائباً وتوصد دونه الأبواب ، لأنك أثيم شرير ، وليس أدل على إثمك من حادثة اليوم .. إلى السجن أيها المجرم حتى تنال جزاء ما اقترفته يداك من شر .. خذوه !!

فانفرجت شفتا الشاب عن ابتسامة مرة يفعمها الاستهتار، وخرج من لدن رئيس جمعية

الانسانية الخيرية يحيط به جلادوه من إخوته الفقراء البائسين الذين رضوا أن يصنعوا من أنفسهم عبيداً الأغنياء ، وساقوه حيث أودع غيابة السجن ...

***

وكانت كلمة القضاء .. وإذ هي تقضي بحبس الشاب سنة مع الشغل ، لأنه وإن ثبت للقضاء قطعاً أن الشاب لم يلجأ إلى السرقة إلا لإنقاذ والدته من براثن الموت وخلاص نفسه ، ولكن القانون صريح لاتأويل فيه، ويزيد القانون تشدداً وعنفاً أنه فى هذه الحال بالذات إنما يحمى رءوف بك نصير البائسين وملاذ الفقراء والمعوزين .

وهتف أتباع المحسن الكبير فى حماسة ظاهرة: يحيا القضاء العادل ! يحيا القضاء العادل !

وهمس بعض الأغبياء من الحاضرين : لعله من القضاء خطأ غير مقصود !!

وأما رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية فراح يتحدث إلى كل من لاقاه ـ فى تواضع وفى غير افتخار ـ بأنه كان أعقل من أن يعطى الإحسان لمن لا يستحقه ...

***

فى كوخ حقير بإحدى أطراف المدينة النائية ، وفوق حصير بال تحيط به أربعة جدران سوداء مرطبة ، راحت أم « المجرم » العجوز تنادى ولدها الوحيد العزيز وهى فى غيبوبة النزع الأخير: ولدى! ولدى! هاك استمع سر مولدك فقد حلت الساعة! ولدى! ولدى!وكانت زائغة البصر تنشد وجه ابنها عبثاً فيمن حولها من الفقراء الذين أخفوا عنها الحقيقة المرة ، وكانت تحتضر فى بطء كأنما كانت تستمهل الموت حتى تودع وحيدها الذى أودعوه غيابة السجن وبات محالا أن تراه ... ولكن ... ولكن كأن الموت أشفق أخيراً على العجوز أن يطول عذابها فلم يرض أن يمهلها ، وإذ حلت الساعة الرهيبة لفظت الأم آخر أنفاسها وهى تردد : ولدى ! ولدى !

***

وتولت جمعية الانسانية الخيرية التى يرأسها رءوف بك دفن رفات العجوز الفقيرة إذ لم يكن لها أحد يعتنى بها أو يهتم لشأنها بعد ابنها السجين، وأثناء ماكانوا ينقلون جثمانها ليواروه التراب عثروا فى فجوة تحت الحصير على صندوق صغير من العاج هو كل تراثها،فأخذوه وسلموه رئيس الجمعية ...

وفى استهتار وافر وعدم مبالاة فتح رءوف بك الصندوق وتناول منه ملفاً صغيراً من الأوراق هو كل ما يحتويه، وإذ كان يقلب هذا الملف بين يديه سقطت منه صورة فتوغرافية صغيرة عرف فيها رءوف بك والده الباشا بلباسه العسكرى.. فأخذته رعدة، جالد حتى تغلب عليها.. ثم راح يقرأ ما بالملف من أوراق، فإذا هو فى صدد قصة رائعة حزينة كان والده الباشا بطلها.

عرف والد رءوف بك هذه العجوز منذ نيف وثلاثين سنة، ولم تكن قد تخطت - إذ ذاك - العقد الثالث من عمرها فأحبها إلى حد الولع، إذ كانت وافرة الحسن رائعة الجمال، وعاشرها فترة أنجبت فيها ذلك الشاب البائس الذى زج به رءوف بك إلى السجن وهو أخوه من أبيه، ثم مات الباشا وتسترت الأم على نفسها خشية الفضيحة والعار، وتوالت النكبات عليها فباتت ولا مورد رزق لها فى الحياة سوى جمالها إن شاءت، فأبت أن تتبذل وراحت تشتغل لتعيش ..

تنازعت نفس رءوف بك أفكار متباينة وعواطف متضادة وراح نهباً مقسما لها، فهو يشفق تارة ويقسو تارات، وأخيراً انتصرت فيه عاطفة الأنانية وحب الذات، فقام إلى باب حجرته وأوصده، ثم عمد إلى الملف فأشعل فيه النار وظل يرقبه حتى التهمته عن آخره.

***

استراح ضمير رءوف بك الحى، ثم خرج من غرفته متزن الخطوة فى غير غرور، وسار بين صفوف المعجبين به والمريديه الذين كانوا لا يفتأون يرددون آيات الإعجاب به وبخلقه المتسامح السامى الذى يأخذ الأم بجريرة ابنها، ثم لم يتمالكوا أنفسهم من أن يهتفوا له جميعاً فى صوت واحد: يحيا رءوف بك ملجأ البائسين!! يحيا المحسن الكريم!!...

رشدى ميخائيل السيسى

اسماعيل باشا صبرى

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ — ١٩٢٣ م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

— ٣ —

عرف القارئ مما نشرناه على صفحات هذه المجلة الزهراء عن إسماعيل باشا صبرى ، كيف أن ادباء العصر ، قد اتخذوا منه زعيماً لهم ، أو عميداً لمدرسة الشعر الحديث ، وذلك لما تحققوه فى شعر الرجل من الروعة وروح التجديد ، وفى نقده وملاحظاته من الدقة وأصالة الرأى ؛ هذا ويلوح لى أن « صبرى » لم يكن أستاذاً لمشاهير أدباء جيله فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك أستاذاً لشهيرات أديبات العصر أيضاً .

فيؤخذ من حديث أذيع لنابغة الشرق الآنسة مى ، أن من أهم البواعث التى أثرت فى مجرى حياتها : تلك الاجتماعات الأدبية الراقية ، التى كانت تنعقد فى صالونها فى كل يوم ثلاثاء برئاسة إسماعيل صبرى . وقد قالت هذه الأديبة العظيمة الفذة : إنها اقتبست تهذيبها العربى مما كان يدور فى الصالون من البحوث الطريفة الشائقة باللغة العربية الفصيحة .

وإنى أحفظ لشاعرنا أغرودة من الشعر العاطفى الرقيق ، يحن فيها إلى تلك الاجتماعات الثلاثائية ، والتى كان يرأسها بدار « مى » ! ؛ كما يحن الطائر الصادى إلى غدير الماء ، وهذه هى الأغرودة :

روحى على بعض دور الحى حائمة ... كظامئ الطير تواقاً إلى الماء !
إن لم أمتع « بمىّ » ناظرىّ غداً ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

حفظت وأنا يافع هذين البيتين ، يتخللها تشطير بديع محكم ، وقد عثرت عليهما منشورين بمجلة « سركيس » ، بيد أن الذاكرة ـ قاتلها الله ـ قد خانتنى الآن فى حفظ اسم ذلك الأديب السورى صاحب هذا التشطير :

« روحى على بعض دور الحى حائمة » ... ترتاد موضع أحلامى وأهوائى
دار لميّة أنويها وأطلبها ... « كظامئ الطير تواقاً إلى الماء »
« إن لم أمتع بمى ناظرى غداً » ... أو لم تمتع أغاريدى بإصغاء

«أنكرت صبحك يايوم الثلاثاء »! بل أنكرت ليلى بل أنكرت يومى

ولقد كان لشيخ الشعراء ولع بالموسيقى شديد ، جعله يهتم بترقيتها ، ويسعى لتهذيب الأناشيد، وله مقاطيع وأدوار عدة بالعامية والفصيحة ، وضعها خصيصاً للتلحين ، وهو المؤلف لهذا الدور البلدى لأحد الموقعين على نغمات العود :

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
دا الحب كله أشجان ياقلب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر

إلى آخر الدور :

وإنى سأعرض على القارىء أدواراً من أغانيه الفصيحة مع مختاراته فى ذيل المقال ، ولا شك فى أنها ستذهب بخيال القارىء إلى ما كان عليه الغناء العربى فى عهد العباسيين الزاهر !

وفى هذه النادرة الطريفة التالية، لبرهان قاطع على أن شاعرنا كان مرجعاً لشعراء الأغانى كما كان مرجعاً لسواهم .

قال الدكتور هيكل : « روى لى أحمد شوقى بك حادثة فى غاية اللطف ، تلك أنه كان يوماً عند «صبرى» وهو يشغل منصب النائب العمومى ، وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها ، وفيما هما جالسان يتحادثان ، دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما، وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى ذلك الحادث السياسى ، وما يجب اتخاذه من الاجراءات بإزائه ، فلما فض صبرى باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً !! ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ، قد بعث فى هـذا المظروف « بدور غنائى » وهو يطلب إلى النائب العام إصلاحه ».

«ولهذه المناسبة قص صبرى لشوقى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دماً لاقتتال الناس فيها ؛ ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة ، تطلب إليها وتراً تصلح به عودها !

وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام ، أن يصلح له دوراً غنائياً فى حين أن البلاد المصرية تموج بحادث سياسى لاتعرف نتائجه!.»

يجمل بى هنا أن أكتفى بما دونته من تاريخ حياة الرجل باختصار ، وبما سقته من مستطرف نوادره التى تدل على مكانته المحترمة الملحوظة بين أدباء العصر ، والمزايا الجمة التى تفرد بها ، وهأنذا أمهد لما سأختتم به موضعى من مختارات الشاعر. لقد نظم شاعرنا فى مختلف المواضيع كالمدح والرثاء والغزل والحكم والفلسفة حتى الفكاهة ، وكان موفقاً فى كل مانظم فيه بنوع

عام ، ولكنه قد وفق كل التوفيق، بنوع خاص ، فيما نظم من الشعر الغنائى والغزل الوجدانى .

ولعل السبب فى ذلك ، هو شدة حب الشاعر للمرأة وتقديسه إياها ، وشاعرنا لم يتصبب بامرأة معروفة بالذات، ولم يعشق عشقاً أثيماً داعراً كما كان يعشق عمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد ، وأضرابهما من الشعراء الشهوانيين، حاشا! بل كان يحب المرأة من حيث هى امرأة ، أو قل بعبارة ثانية إنه كان يحب الأنوثة حباً قدسياً أفلاطونياً عنيفاً عفيفاً ! !

« ويقول أحد الأساتذة : إن صبرى كان ينظر إلى المرأة نظر المصور الماهر إلى دمية جميلة يجد فى جمالها ظلاً يتزوى فيه من هجير الحياة ! وينظم فيها المقاطيع الشعرية الرائعة ، شأن المثال الذى يفضل نحت الدمى الصغيرة على تشييد هرم جليل ! » .

وانظر إليه فى هذا البيت المبتكر المعنى ، كيف تخيل المرأة مخلوقاً ملائكياً روحانياً ، ليس للماء ولا للطين أى دخل فى تكوينه ، قال :

أنت روحانية لا تدعى   أن هذا الحسن من طين وماء ! !

ونجد شوقى قد اقتبس هذا المعنى الجديد وصاغه فى بيته :

صونى جمالك عنا إننا بشر   من التراب وهذا الحسن روحانى

وأنت إذا رجعت إلى مطلع عينية شوقى التى جارى بها عينية الفيلسوف الرئيس ابن سينا وهو :

ضمى قناعك ياسعاد أو ارفعى   هذى المحاسن ما خلقن لبرقع

لوجدت أن شوقى قد أخذ هذا المعنى أيضاً من قول أستاذه صبرى حيث قال :

واسفرى تلك حلىً ما خلقت   لتوارى بلثام أو خباء

ولا غرو فشوقى له حسناته فى تقليد من كان معجباً بهم من الشعراء الذين تقدموه وعاصروه .

ونلاحظ أن صبرى نفسه — فى أيام شبابه — كان مقلداً ، يجرى وراء هذا وذاك من فطاحل الشعراء الأسبقين ، يقلدهم ويستعيد طريف معانيهم ، ولاسيما البحترى الذى كان يعجب به ويستظهر ديوانه عن ظهر قلب ، ولكنه بعد أن خلع عنه رداء الأربعين ، امتلأ شعره بروح تجديدية محسوسة ، تطالعك من خلال ألفاظه الرائعة ودقيق معانيه ، ولكأنى به كان يقول مع القائل :

سئمت كل قديم   عرفته فى حياتى
إن كان عندك شىء   من الجديد فهات

« وقد قال أحد الأدباء : وكأنى بصبرى قبل بلوغه سن الأربعين ، كان يفتح كتاب الوجود يتلمس فيه الطريقة البكر التى لم يفترعها شاعر قبله ، ولكنه لم يهد إليها إلا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب ! ! » .

وشعر صبرى على تنوع موضوعاته يتسم بسمات الرقة، ولا أقصد تلك الرقة اللينة المائعة

التى تولد فى النفس عوامل التراخى والاستسلام ، كالتى يصطبغ بها شعر بعضهم من المتصوفة والزهاد ، والذين لا أمل لهم يسعون لتحقيقه فى هذه الحياة ؛ وإنما أقصد الرقة التى لها من جمالها قوة ومن روعتها تماسك ، الرقة التى تنبه أحاسيس النفس وتشحذها ، وتملأ فجوات القلب حباً وأملا وحياة ! الرقة التى تمثلها نسمات السحر المنعشة بخطراتها ، والزهرة بشذاها وحلو ابتسامتها ، والقمر ببهاء طلعته وصفاء نوره وتلألئه !

ولأعرج من هنا إلى حديقة أشعار شيخ شعرائنا ، لكى أنسق بها باقة من زهر الشعر أقدمها للقارىء وأنا ضمين بألا يعترض القارىء ، فى بيت ما ، رأى غامض، أو كلمة نابية ، أو تشبيه جاف معقد أو معنى مبتذل ، بل سيجد القارىء فى هذه المختارات والمقتطفات ألفاظاً متجاوبة ، وروِّيا موسيقياً مطرباً ، يسرى رنينه فى النفس كما يسرى النسيم البليل فى جسم المحرور.

وأظن أن ليس من الإنصاف أن أغفل ذكر تلك الكلمة البليغة الجامعة ، التى شرح فيها شاعر القطرين الطريقة التى يجرى عليها شيخ الشعراء فى نظم أشعاره ، قال مطران :

« أكثر ما ينظم للخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنه يمثل ما تنطق لفظة « إيه » مستطيلة ، ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، أو قلما يزيد على هذا المقدار ، إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام لما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب ، أهمله ثم نسيه ، وهكذا يمر الآن بعد الآن ، فيجيش الشعر فى صدره ، فيرسل بيته إطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ، ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة ، شاديين على توقيع العروض ، إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ، ذلك هو الشعر للشعر » .

مختاراته

قال من قصيدة دعاها تمثال جمال:

إن هـذا الحسن كالماء الذى ... فيـه للأنفس رى وشـفـاء
لاتزودى بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيـه ازدحمت ... سفن الآمال يزجيها الرجاء
أقبـلى نستقبل الدنيـا وما ... ضمنته من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ما خلقت ... لتـوارى بلثام أو خبـاء
أنت روحانيـــة لا تدعى ... أن هذا الحسن من طين وماء !
وانزعى عن جسمك الثوب يبن ... للملا تكوين سكان السماء

وأرى الدنيـا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء !

نشرت هذه القصيدة الحالية اللفظ ، البديعة المعنى ، لأول مرة برمتها فى سنة ١٩٠١م، بالمجلة المصرية التى كان يقوم بإصدارها خليل مطران ، وبالنسبة لطرافة القصيدة وطلاوتها علق عليها يقول :

« كانت الغزليات قبل الآن ، فيها مايمس الآداب العمومية ، من ذكر القدود والنهود ، والضم والعناق، ورقة الخصر وكثافة الردف ، ولقد كان هذا من العام ، حتى فى قصائد المدح للملوك والأمراء ، وهذا مالا ترضاه الأذواق السليمة فى هذه الأيام ، وينكره علينا أدباء الغرب، وقد سئل سعادة المفضال إسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية، وتجعل فى كتاب يؤلف الآن فى مختارات الشعر العربى قديمه وحديثه ، فجادت قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية، من حيث سمو الخيال ، ونزاهة المقصد ، وغرابة الوضع، ولعل هذه القصيدة أحسن ماجمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر ».

ومن غزله الذى جاوز فيه حدود الإبداع ولم يسبقه إلى معناه شاعر ما ، قوله :

يا راحة القلب ياشغل الفؤاد صلى متيما أنت فى الحالين دنياه
زينى الندى وسيلى فى جوانبه لطفاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حياناً بها الله !
إن غاب ساقى الطلا أوصد، لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه !

ومن غنائياته السائرة :

اصبر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ماكانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا؟
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا !

ومنها أيضاً هذه الأنشودة :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داء فى زواياها ؟
أواه من حرق أودت بمعظمها ولم تزل تتمشى فى بقاياها !
يا شوق رفقاً بأضلاع عصفت بها فالقلب يخفق ذعراً فى حناياها !

وقال فى الحماسة عن لسان فرعون يخاطب الشعب ويستنهض همته :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة منكم بفرعون عالى العرش والشان
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كداً دون مورده أو فاطلبوا غيره رياً لظمآن
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته حتى يميط لكم عن وجه إمكان

وكان أستاذ شعرائنا يسير فى يوم من أيام الصيف راجلا بضاحية الجيزة ، فمر فى طريقه بدوحة وارفة الظل، وجوقة من شاديات الطيور ، تتغنى على أفنانها وتتطارح الأناشيد وهى آمنة من حر الهاجرة الذى اصطلى هو به ، فأجاش هذا المشهد عاطفة الشعر فى داخله، فوقف يستظل بأغصان هذه الدوحة ، ويعاتبها عتاب شاعر رقيق حساس ، ويسأل عمن يعيره جناحى طائر صادح، لكى يعتلى الدوحة ويقضى سحابة العمر مترنماً ، كما هى عادة العنادل. قال :

عار عليك وهـذا الظل منتشر … فتك الهجير بمثلى فى نواحيك

فمن معيرى جناحى طائر غرد … كى أصرف العمر شدواً فى أعاليك؟ !

وقد ارتجل هذه الأبيات الآتية التى تسيل كلماتها دموعاً، يوم وفاة الطفل الوحيد لصديقه الشيخ على يوسف صاحب المؤيد المدعو عمراً :

يامالىء العين نوراً ، والفؤاد هوى، … والبيت أنساً ، تمهل ، أيها القمر !

لاتخل أفقك يخلفك الظلام به … والزم مكانك لايحلل به الكدر

فى الحى قلبان باتا بانعيمهما … وفيهما إذ قضيت النار تستعر

وأعين أربع تبكى عليك أسى … ومن بكاء الثكالى السيل والمطر !

قد كنت ريحانة فى البيت واحدة … يروح فيه ويغدو نفحها العطر

ماكان عيشك فى الأحياء مختصراً … إلا كما عاش فى أكمامه الزهر !

فارحل تشيعك الأرواح جازعة … فى ذمة الله بعد القبر ياعمر !

ونختار له هذه الأبيات من قصيدته المؤثرة فى رثاء بطرس باشا غالى :

تبكى المروءات على بطرس … ذاك الهمام الماجد الأروع

فتشت ، لما لم أجد مقلتى … كفواً ، عن الفضل ليبكى معى !

فقيل لى : قد سار فى إثره … يوم دفناه ولم يرجع !

يامجرياً دمع الملا أبحراً … أدركهم يامرقىء الأدمع

يانازلا بين وفود البلى … آنستهم ياموحش الأربع

عينىّ فيك اليوم قبطية … تروى الأسى عن مسلم موجع !

بهم من وجد ومن لوعة … فى الجانب الأيسر من أضلعى !

يامن سقانى الجم من وده … هـذا ودادى كله فاكرع !

وقال من قصيدة يمتدح بها صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا، بمناسبة إعاناته للجرحى الذين ابلوا فى الحرب التركية ضد البلقان :

لك الإمارة والأقوام مابرحت … بكل عالى الذرا فى الكون تأتمر

لو لم ترثها لما ألقت أعنتها … إلا إليك خلال كلها غرر

ياابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم … يوماً عليك لقالوا: إيه ياعمر !

أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا !
وسرت سيرتهم حتى كأنهمو إذا خطرت بأرض مرة خطروا !
لله درك كم نبهت من همم تثنى على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا !

ومن قوله المملوء بروح الحكمة والحقيقة :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفراً
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب براً !
تعب الفيلسوف فى الناس عصراً وتولى السرائر الدين عصراً !
والورى طارد إزاء طريد وعقاب يمسى يطارد صقرا
عبر كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا ؟

وهاك مايدل على وفاء الشاعر حتى للخائنين من أصحابه :

إذا خاننى خل قديم وعقنى وفوّقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم !

يزعم بعض الفلاسفة أن للدين لوناً يختلف عن لون الفلسفة كل الاختلاف ، بمعنى أنه إذا كان مثلا للدين لون أبيض ، فيكون للفلسفة لون أحمر ! وأنا أعتقد أن الانسان متى وفق فى مزج هذين اللونين ، تولد هنالك لون آخر رائق يبهر النفس ، وأستطيع أن أسمى هذا اللون بالاعتدال وعدم التطرف فى الرأى ؛ وهذا ماتمكن صبرى أن يفعله فى هذه المقطوعة الفريدة فى بابها ، التى جمع فيها بين شطط الآراء الفلسفية وروحانية الدين ، على أنى لا أزعم أن للرجل مذهباً خاصاً به فى الفلسفة كان يعمل له ويدعو الناس إليه ، إنما غاية ماهنالك أن هذه الأبيات تدل على مايكنه قلبه الشاعر الكبير من التعظيم لمبدع هذا الكون العظيم .

قال يناجى الله ويسأله فى ضراعة وابتهال :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار ؟
لم يبق عفوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار !
يارب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار !
ياعالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ومن فلسفياته أيضاً الأبيات الآتية ، التى يقف فيها بجانب فيلسوف المعرة «أبى العلاء» ويرجح كفة الموت الراجحة بالراحة على كفة الحياة التى لاتحتوى على شىء عدا التعب قال :

ان سئمت الحياة فارجع إلى الأرض تنم آمناً من الأوصاب !

تلك أم أحنى عليك من الأ م التي خلفتك للأتعاب !
لاتخف ، فالممات ليس بماح منك إلا ماتشتكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنـ وان مانص فى غضون الكتاب!
وحياة المرء اغتراب فإن ما ت فقد عاد سالما للتراب !

نهاية الكنار

وفى أواخر أعوامه أذبلت الشيخوخة ديباجة(١) هذا الكنار أو بالحرى «ملك الكنار»، وألم به داء عضال أخفت صوته وأهاض جناحيه، وجعله ضريع الوساد لايستطيع أن يغادر وكره، وهذا المرض هو داء الأزمة الصدرية ، وكأنى به حين ازدياد وطأة الأزمة عليه يتلوى فى فراشه ألماً وهو يرجع قوله مهيباً بالموت :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الأسقام منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

ويقول الأستاذ أنطون الجميل : « كان الجميع يرضون عن شعر صبرى إلا صبرى نفسه .... حتى كأنه يقول إن أجمل شعرى لا يزال فى صدرى لم أتمكن من نظمه بعد» ، ويقول الأستاذ أيضاً : « ماعدنا صبرى مرة فى أيام مرضه إلا وسألنا : هل من شعر جديد فى البلد ؟ وهكذا شأن كبار القواد، متى أحيلوا إلى الاستيداع يرتاحون إلى سماع أخبار المواقع التى يضع خططها ونظمها غيرهم » .

هذا وفى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٢٣ م ، امتدت يد الموت القاسية إلى قيثارة الأدب العصرى، فتناولتها وانتزعت منها ـ فى غير رحمة ولا إشفاق ـ وتراً حالى الرنين متنوع النغمات ، وهذا الوتر هو شيخ شعراء العصر ، إسماعيل باشا صبرى ، فلا غرو أن :

جزع الحمى لنعيـه وبكاه شبان وشيب !

[أم درمان: سودان] المبارك ابراهيم

(المعرفة) اتفق وجود الأستاذ الهراوى وقت تصحيح القسم الأخير من هذا المقال، فلاحظ أن هذه العبارة غير متفقة والواقع. والحقيقة التى يعرفها من معاشرته للفقيد حتى آخر أيامه أنه استخف بكل شىء فى الحياة ، ومن بينها الشعر على قدرة منه عليه .

ونذكر بهذه المناسبة أن صهره الأستاذ محمد بك عزت المستشار بمحكمة الاستئناف قد جمع شعر الفقيد المشتت فى الصحف والأفواه، وهو الآن يعده للطبع .

مملكة المرأة والبيت

لماذا كسدت سوق الزواج ؟

أتحدث هذا الشهر عن المشكلة الاجتماعية الكبرى التى كثر فيها القيل والقال ، والتى لم ينفع فى حلها قيل ولا قال ، وهى كساد سوق الزواج :

أعرف بيتاً من البيوت العريقة ، فى حى من الأحياء القديمة ، وفى هذا البيت ثلاث فتيات تتوفر فيهن كلهن كافة شرائط الزواج ، ولكنهن لم يتزوجن ! لاحظت هذا ، فدفعنى الفضول إلى محاولة التدرج معهن فى الحديث عساهن أن يفضين إلى بما يجيش فى نفوسهن ، بعد إذ اتضح لى أن سبب إحجام الشبان عنهن هو — على حد تعبيرهن — « فنزحة » الست الوالدة والسيد الوالد المحترم .. . وفى ذات عصر انتهزت فرصة خلو البيت إلا من الفتاة الكبيرة ، فأحببت أن أحادثها فى الموضوع قليلا ، فقلت لها :

قرأت يا أخت فى المدرسة أن التزاوج هو الأصل فى النوع ، وهو قانون الحياة الأول ؛ وأنت مثقفة وجميلة وفى السن الملائمة ، فلماذا لا تتزوجين ؟

وبدل أن تنطق الفتاة فى ثرثرة فتيات المدارس المعتادة ، رأيتها تصدر تنهدة ثقيلة ، وتقلب شفتيها ، ولا تنبس ببنت شفة ، فكررت السؤال ، وتكررت منها التنهدة وقلبت الشفتين ، وتناولت من جانبها كتابا فى « التطريز » أخذت تقلب صفحاته فى سرعة مجنونة وإمارات اضطراب عصبى عنيف فسكت . ولم تمض بضع دقائق حتى ألقت الكتاب إلى جانبها وقالت :

تسألينى يا « ص » : لماذا لا أتزوج ؟ أفتحسبين ذلك صادراً عنى ؟ ! ليست على وجه الأرض فتاة فى سنى ، ولا تفكر فى الزواج أو لا ترتضيه .. ولكن الفتاة مهيضة الجناح مهضومة الجانب فى الحياة الدنيا ، فماذا ترينها فاعلة عند ما يتحكم فى مصيرها ولى أمرها سواء أكان والدها أم والدتها ؟

قلت لها : ما أظن على وجه الأرض ولى أمر فتاة لا يحب لها الزواج وسعادة المصير .

فقالت : هو كذلك ! ولقد يجرم الإنسان بعض الأحيان عن غير قصد ، ولكنه مجرم فى نظر الحق على كل حال .

فلم يرقني من الفتاة تعلقها بمثل هذه « السفسطات » ؛ فاقتربت منها ووضعت يدى على كتفها وقلت لها :

صمتاً يافتاتى ! ألا فلتفض فاك عن مثل هذا القضايا ، ولتعلمى أن كثيراً من المقررات النظرية لا ينفع فى الحياة العملية على الإطلاق ، حتى لكأنما يجوز لنا أن نتهم بالجنون واضعيها والمفكرين فيها والآخذين بها ، وعندى أن التربية والاجتماع والنفس ، كل أولئك شئون تجريبية أكثر منها نظرية . دعينا من هذا فإنى أحب أن أعرف الحقيقة عنك وعن شقيقاتك فيما يختص بالزواج ، فأرجو أن تتكرمى على بالإجابة عن الأسئلة الآتية . فنظرت إلى الفتاة نظرة حركت القلب منى وعواطف الحس ، واغرورق الدمع فى عينيها ، ثم أطرقت برأسها إلى الأرض وقالت : لك ذلك ، فاسأليني ما تريدين .

قلت :

هل تقدم لخطبتك أحد ؟

فأومأت برأسها ولم تجب كلاما ، فاستدركت أقول :

حسنا ، فلماذا لم يتم الزواج ؟

فانطلقت الفتاة تقول ، وقد تفجر القول منها تفجيراً :

— تقدم لخطبتى شاب من شجرة أصلها فى الصعيد ثابت وفرعها فى القاهرة ، توفرت فى هذا الشاب كل الشرائط التى كنت أصبو إليها ، فإنى عند مارأيت صورته تبين لى أنه شاب جميل مفتول العضلات متين التركيب حلو التقاطيع مليح الوجه ، وسأل أبى عنه فعرف أنه يملك نحواً من المائة فدان فى إحدى قرى أسيوط ، وهو محام شرعى حديث ، وأبدى موافقته على المهر الذى طلب أبى ، وعلى أن يعيش معنا فى نفس هذا المنزل ، وعلى أن يقطع بتاتا صلته بخالة له كان يعايشها بدل أمه ، أما أبوه فقد توفى قبل تقدمه إلى بنحو العامين ، والظاهر أن أبى كان أعقل من والدتى وأحزم ، فإنه قد ارتضاه لى زوجا ، وعلى حسب الطريق المتبعة فى البيوتات المصرية فقد أخذ رأيى فأبديت قبولا .. بل قولى أبديت سروراً ... وفى أذنك : ماذا تريد فتاة فى الثالثة والعشرين ، تعلمت واكتملت أنوثتها ، أكثر من أن تتزوج شابا جميلا ثريا له عمل ؟! ولكن والدتى — قاتلها الله — صرخت فى وجه أبى تقول :

فوأمى فى قبرها لن تتزوج ابنتى الكبرى من رجل « بعمة وجبة وقفطان » ! ! واجتمعت الدنيا أساطيل بأسرها فما استطاعت أن تحولها عن رأيها ، وهكذا ضاعت الخطوبة الأولى .

وأخرجت من جيبى الصغير منديلا أجفف به دموعها المتدفقة ، والتى جرت من تلقاء ذاتها ، حزناً

على مجريتهـا ، وحاولت أن أهدىء من روعهـا ، وهممت أن أتكلم ، ولـكنى سمعتها تقول :
وما كان أعنفها صدمة ! ومع ذلك فقد كانت الأسابيع القادمة كفيلة بذهاب أثرها، حيث تقـدم لخطبتى شاب من موظفى الحكومة فرفض، لأن راتبه ستة جنيهات مصرية فقط! وتقدم ثالث فرفض أيضاً إذ قيل إنه من عشاق الخمر ، وتقدم رابع وخامس وسادس وهكذا . . وعيب صغير فى كل منهم هو الذى يقوم بمهمة « وكيل النيابة » ضده ؛ وتقدم واحد فتمت خطوات الخطوبة كلهـا ، ثم قام خلاف بينـه وبين والدتى على شكل الدولاب أدى إلى فسخ الخطوبة !

***

وفى الحق ، لقد هاجنى ما سمعت وندبت حظ تلك الفتاة ، ولم يكن لى من قبل عهد بمثل ذلك التحكم ، فقد توفى أبى ـ وأنا صغيرة ـ وتوفيت والدتى فى السنة التى تخرجت فيها من مدرسة المعلمـات ، ثم أخذت زوجى الذى أعاشره الآن بنفسى ودون أن يصدنى عنه حائل ما، وعرفت أن والدى هذه الفتاة لهما عقلية غريبة، فأحببت أن أعرف عنها شيئاً أكثر، فقلت:
هونى عن نفسـك فلعـل بعد نظرهما هو الذى حدا بهما إلى رفض كل هؤلاء الخاطبين ؛ وكأنما كانت على علم بما سأقول، فإنى رأيتها تقول فى لهجة ميكانيكية:
نعم يا « ص » إن لهما لنـظراً بعيـداً . . . إنهما يريدان أن يتقـدم لخطبتى « البرنس اوف ويلز » أو من يساويه درجة !؟ فاذا لم يكن الأمر كذلك ، فمن ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلاً — ياصديقتى — أن تعد معايبه — على ما قال شاعر العرب ؟ أو هل يريد أن أن تـكون الحياة أمامى أقراصاً من العسل وسلالاً من الحلوى ؟ ! هل يمكن أن يتحقق هذه فى زيجة من الزيجات ؟؟ إننى ياصديقتى كنت أرتضى الزواج بأى ممن تقدموا لخطبتى . . ولـكن . . هل أجرؤ على فتـح فمى !؟ كلا ... أو يسحب الخياط لسده ...
قلت: يجب أن تـكونى أكثر شجاعة وجلداً ، ومن يقابل الحياة بالبكاء ، تقابله بالعويل والنواح .. والباسم لها يجدها ضاحكة له على الدوام ... والآن فماذا عن أخواتك ؟
فقالت: حالها هى حالى يا « ص » ؛ وعند والدتى أن الـكبرى يجب أن تـكون أسبق أخواتها إلى الزواج ، وعلى الصغيرة أن تنتظر تأهيل الـكبيرة ، أو فإنها لاترى الزواج مطلقاً . . وأبى لابد له فى النهاية من أن يخضع لرأى أمى و ...
ورأيت أن استدامة الـكلام قد تعكر علينا صفو جلستنا الهادئة فأومأت إيجابا ، ثم أسفاً ، ثم أخذت ذراعها فى ذراعى وانطلقنا إلى حديقة لنا تقطن الشقة العليا ، لأصرفها عن التفـكير فيما كنا به نتحدث ...

ص

العلوم والفنون

مبضع كهربائي جديد :

اخترع الأستاذ (شارلس . ف . بريتـويزر) أحد أعضاء « قسم التجارب والأبحاث » بمعهد كاليفورنيا التـكنيكي ، جهازاً جديداً يجعل من المستطاع التحكم في التيارات الـكهربائية عالية الذبذبة ؛ وهذا الجهاز الجديد عبارة عن مبضع كهربائي كالذي كان يستخدم من قبل في عالم الطب لإجراء العمليات الجراحيـة الخطيرة الذي يقصد فيها إلى النظافة التامة ، وإلى عدم تساقط الدماء . ولـكنه يمتاز عن القديم بما حواه من مواد تخضع ذبذبات التيار ، في علوها وانخفاضها ، لإرادة الطبيب ، ويعتبر خروج هذا الجهاز إلى حيز الوجود فاتحة عهد جديد للجراحة الـكهربائية .

أرجل ميكانيكية :

في مدينـة (لوز أنجلز) بكاليفورنيا من ولايات أمريكا ، يوجد رجل اتخذ الاختراع مهنة له ، فاستأجر في شارع بعيد عن منزله معملاً يكون مسرح تجاريبه ، فكان الرجل يجد صعوبة ومشقة في الانتقـال على قدميه من بيته إلى معمله ، ومن معمله إلى بيته عدة مرات في النهار ؛ ولم تـكن حالته المالية تساعده على التخلص من متاعب المشي باستخدام إحدى طرق المواصلات الحديثة .

وقد أخذ الرجل يفكر في حل لمشكلته ، وفيما هو يستعرض مختلف ما يمكن من الحلول ، قال في نفسه : إني لا أكره المشي في ذاته وإنما أكره التعب الذي يستولي على من جراء المشي ، وليس ينتج التعب إلا من الإجهاد العضلي ، ومعنى هذا أني لا أمانع في المشي إذا لم ينتج عنه إجهاد عضلي ؛ أي إذا تمت عملية المشي بمجهود ميكانيكي .. وهكذا ظل الرجل يفترض ويستنتج



نوع جديد من « البراشوت » يفتح من الجنب بدلا من أسفل ، ويفيد كثيراً حينما تزيد على الطيار قوة الجذب إلى الأرض ، بسبب اشتداد الرياح

ثم يجرب ثم يخرب ، حتى توصل إلى إتمام عملية المشى بدون مجهود عضلى ، وبالحرى بمجهود ميكانيكى ، وتم له بذلك اختراع الأرجل الميكانيكية التى ظل العلماء يحلمون بها دهراً طويلا .

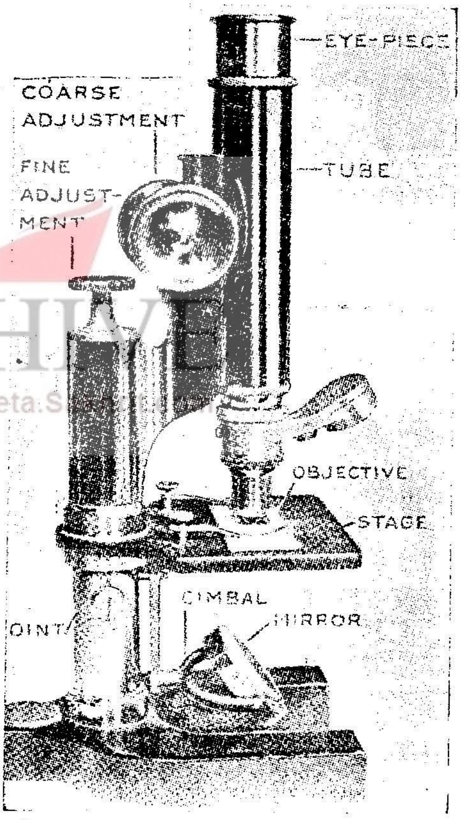
والنموذج الذى صنعه الرجل لهذه الأرجل الميكانيكية يتركب مما يأتى :

١ — بقايا دراجة مستهلكة . ٢ — أرجل خشبية . ٣ حذاء قديم !! ٤ — بدال الدراجة . ٥ — كرسى الدراجة . وليس على مستعمل هذه الأرجل الميكانيكية إلا أن يستند إلى حائط أو ما شاكله ثم يقتعد (الكرسى) ويبدل ، فتسير الأرجل الصناعية كما تسير أرجل الإنسان الطبيعية . فترى هل إذا فكر مصرى فى أن يستورد له رجلين من هذا الصنف ، تفرض الجمارك عليها رسوماً كباقى الآلات ؟ !



الراديو فى الثلاجة

هذه الدائرة الصغيرة التى تظهر فى الصورة ليست ثقباً عاديا ، وإنما هى « ميكروفون راديو » تبرعت بإهدائه لزبائنها إحدى شركات بيع الثلاجات الكهربائية فى أمريكا .



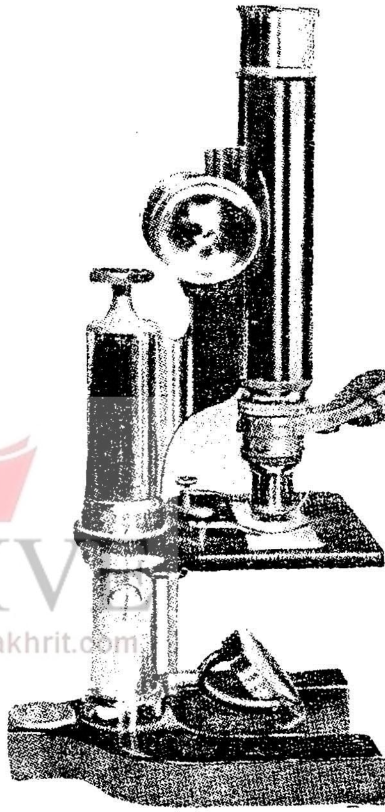
ميكروسكوب كولمبيا

وهو يعد الأول من نوعه فى العالم ويمتاز بأن قطر عدسته متر وسبعة وخمسون سنتيمتر !

تخفيف حمولة الكبارى بالألومنيوم

فى (بيتزبرج) كوبرى للسكة الحديدية وجد المهندسون المختصون أن حركة المرور

عليه أكبر من الحمولة المقررة له منذ أنشىء من واحد وخمسين عاماً . وقد فكروا فى عدة طرق للمحافظة على هذا الكوبرى، لحاجة المرور الماسة إليه. والطريقة التى نجحت معهم كانت استبدال (أرضية) الكوبرى الصلبية بالألومنيوم، فاستطاعوا بهذا أن ينقصوا من ضغط الحمولة (٧٥٠) طناً، وقد صار هذا أول كوبرى من نوعه فى العالم، وقد قرر اتحاد المهندسين المدنيين بهذه المدينة ، تقديم مدالية ذهبية إلى المهندس (ه . م . ول) الذى اهتدى إلى هذه الفكرة لأنه أنقذ البلدية من إنفاق مليونين من الدولارات فى إنشاء كوبرى جديد ...



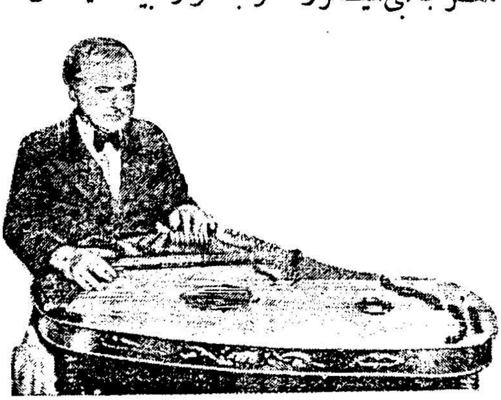
منظر جانبى لميكروسكوب كولومبيا

ميقاتى كهربائى :

مهمة الميقاتى فى الدوائر الرياضية مهمة عسيرة، فهو كثيراً ما يتعرض لأن يخطىء عد الثوانى وحساب أجزائها فيضيع الفرص على الرابحين. وقد حدث هذه الحالة إلى ابتكار « ميقاتى كهربائى » يكون غير معرض للخطأ، ومخترع هذا الجهاز من « جامعة كولومبيا » .

أما كيفية تشغيل الجهاز فهى كما يأتى :

يثبت فى المسدس الصغير ، الذى تصدر عنه إشارة الابتداء (مفتاح تحويل) صغير متصل بالساعة التى يحملها الميقاتى ، وعند ما تصدر الطلقة من المسدس ، يشتغل المفتاح فتبدأ الساعة عدها .. وعند ما ينتهى المتسابق يلمس (مفتاح تحويل) آخر يكون موضوعاً بالنقطة التى تنتهى عندها مسافة السباق ، فتقف الساعة عن الدوران وبذا يتحدد الوقت تماماً دون أن يقع فيه أى خطأ .



(اخترع الموسيقى (فيكتورسيفيرى) أوتاراً جديدة تضاف الى أوتار البيانو فتصدر عنه نغمات جميع الآلات .

زيت كبد الحوت المحلى:

أنشأت حكومة كندا معهداً للأبحاث الخاصة بالأسماك ومنتوجات البحار ، وزودته بكثير من الخبراء والعلماء فى المائيات

وقد استطاع هذا القسم أن يصنع (شوكولاته) مادتها الأساسية (التى تعادل فى الشوكولاته العادية الكاكاو السائل) هى زيت كبد الحوت ، ولكن لا يشعر الذى يتعاطى قطعة منها بأى طعم لا يستيغه. وقد حتمت بعض الحكومات الأمريكية على الأهالى إعطاء أولادهم عدداً معيناً من هذه الشكولاته اللذيذة فى كل أسبوع .

أكبر كتلة من الذهب فى العالم :

فى العالم بضع قطع من الذهب تمتاز بكبر حجمها ، وتعتبر فريدة فى بابها، كما يعتبر أصحابها من أصحاب الحظوظ السعيدة والثروة الطائلة . وأكبر قطعة من هذا المعدن النفيس هى التى عثر عليها حديثاً فى استراليا مهندس معدّن بسيط، ظل يوالى بحثه عن الذهب حتى كادت ثروته اليسيطة أن تضيع، لولا أن ساعدته الظروف بالعثور على تلك القطعة الفريدة فى بابها . وقد قدر ثمنها بمليونى دولار !!



الطائرة السهمية

يرى القارىء فى هذا الرسم نموذجاً لطائرة سهمية جديدة ينوى مخترعها « ديوى لاندروكس » أن يزور بها القمر !!

تلغراف طبيعى عند الزنوج :

لا يحتاج سكان الكنغو فى أفريقيا إلى إنشاء نظام التلغراف لنقل الأخبار بصفة مستعجلة من قرية إلى أخرى . فان طبولهم تغنيهم عنه ، وتمدهم بوسيلة ملائمة لنقل الأخبار .

وقد بحث المكتشفون والعلماء رموز هؤلاء القوم التى يتراسلون بها ، فوجدوا أنها فى دقة وكمال الرموز الموجودة بأرقى البلاد المتمدنة .

والطبلة الكونغية هذه، مكونة من نصف جذع مجوف من جذوع أشجار الكنغو الضخمة ، ولها صوت رنان يسمع على مبعدة عدة أميال .

مكتبة المعرفة

كتب التربية، وكتاب العمروسى بك
نقد وتحليل بقلم الأستاذ أبى السمح
مدير دار الحديث بمكة المكرمة

قرأنا كتباً كثيرة فى التربيـة وقرأنا كتاب العمروسى بك فألفيناه كالقمر ليلة تمه وهى كالنجوم حوله، بل هو كالشمس وهى كالقناديل. لقد امتـاز كتاب العمروسى بك بمميزات جعلته فى السماك الأعلى؛ منها رشاقة عبارته، وبلاغة أسلوبه الذى يأخذ بمجامع القلوب، فلا يمل القارىء، بل يشوقه كل الشوق إلى استيعابه؛ فلا يزال ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن فصل إلى فصل كأنه ينتقل فى جنات نضرة وبساتين مثمرة - ومنها أنه عملى فلا يكاد يقرؤه قارىء - فيما نعتقد من أهل العلم والمشتغلين بالتعليم - إلا اقتنع بكل مافيه وتطور به وانطبع فكره بطابعه فأصبح معلماً بمعنى الكلمة لا يرى مشقة فى كيفيات إفادة تلاميذه ما عنده من علم وتخريج طلبة مستقلين فى الفكر.

ومنها أنه يدور حول قطب، هو أس كل ارتقـاء ومدنية وحضارة وعز وسعادة، وهو الاستقلال الفكرى المناقض للتقليد الذى يميت القرائح والفهوم - ومنها أنه يجلى لك كيفيات التعليم والتربية فى مختلف الأقطار والممالك المتحضرة الراقية، ويكثر من التمثيل والموازنات التى تجعل مسائل العلم كالبدهى عند القارىء وكأنه يشاهدها فى معاهد العلم والتعليم؛ فهو والحق يقال كتاب عديم النظير، لم ينسج على منواله ناسج، ولم يأت بمثله مرب ولا مؤلف - وقد وفق الله جل شأنه الأستاذ أحمد بك العمروسى فيه توفيقاً يبشرنا بحسن المستقبل لأمتنا المصرية بل للشرق كله، وإذا دبت الحياة فى مصر وهى قلب الشرق كله حيا باذن الله.

ولقد امتاز كتاب العمروسى بك أيضاً بايراد كثير من الآيات والأحاديث الحاثة على استقلال الفكر ومدحه وذم التقليد وأهله.

ولا عجب أن يعنى العمروسى بك بهذا النوع من التربية، وهو يعلم أن التقليد عمى، وأنه مضاد للعلم الحق وحائل بين العقل وعمله الذى خلق له، وأنه الذى طالما حال بين الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، وأنه الذى قال الله فى أهله: « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون». « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ».

وقد أجمع علماء الإسلام المستقلون على أن المقلد جاهل لا يجوز له أن يتولى القضاء ولا الإفتاء، لأن ذلك يحتاج إلى علم متجدد بتجدد الحوادث والأقضية، واستنباط حكم ينطبق على كل حادثة من كل جهة من جهاتها، وللزمان والمكان ظروف فى الحوادث لا يصح حكم إلا بمراعاتها، لذلك كان القرآن العزيز والسنة المحمدية صالحين لكل زمان ومكان، فاذا لم يستقل فكر الأفراد لم تستقل أممها. وكتاب العمروسى بك من أحسن الكتب التى يجب على كل معلم أو متعلم أن يقرأه مراراً وتكراراً ليستفيد منه ملكة الاستقلال وكيفية إنقاذ غرقى التقليد من بحار تقليدهم وإحياء أموات أفكارهم أو بعثها من قبور أمخاخهم.

أما كتب التربية الأخرى فهى مقصورة على نظريات وفلسفة الأخلاق وأطوار النفوس وفصول كيفية تعليم بعض الفنون، لكنها خلت من الروح الحى، وهو التعليم الاستقلالى وتدريب الطالبة عليه على الوصف الذى جلاه العمروسى بك فى كتابه أكثر الله من أمثاله وكتبه؟

أبو السمح

المسوّى من أحاديث الموطّا

للإمام ولى الله الدهلوى

أنفع الكتب وأجدرها بالذيوع هى هذه الكتب التى تعنى بالناحية الدينية على وجه كامل، وليس أحق بالدراسة من أحاديث الرسول العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها فى تفصيلها وجملتها دستور رائع للمشترعين وذوى الأفهام جميعاً.

ولقد كان «الدهلوى» أحد القلائل الذين عنوا بإخراج جمهرة كبيرة من الأحاديث النبوية إخراجاً كله تحقيق طيب لجلال الأحاديث، فإنه عنى باستخراج الشوائب منها وإزاحتها بعيداً. وإن أوفر دليل على قيمتها الممتازة أنها طبعت فى الهند مرتين، وأنها ما تزال مرجعاً طيباً من المراجع الإسلامية الدقيقة. ولقد توفر على إخراجها - فى ثوب قشيب - العالمان الفاضلان الحجازيان الزميل الفاضل الأستاذ السيد محمد صالح نصيف، والسيد عبد الوهاب الدهلوى، فنشكر لهما هذه الهدية القيمة مقدرين جهودهما فى إخراجه إخراجاً موفقا سديداً، راجين للزميلة المحترمة «صوت الحجاز» التى طبعته فى مطبعتها بمكة المكرمة وقدمته هدية - كل تقدم وفلاح.

الهـداية

فى العراق الشقيق نهضة إسلامية واسعة النطاق! وفى أهله دءوب ومثابرة على استعادة مجد الإسلام والإشادة بكل ما اكتنفه من حادثات لها أثرها البليغ. وإن فى مولد النبى العظيم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأعمق حادث يهتز له المسلمون إجلالا وإكباراً.

ولقد عنيت جماعة الهداية الإسلامية فى بغداد بإصدار عدد ممتاز من مجلة «الهداية» قصرت

بحوثه الكثيرة المتشعبة على الحفاوة بهذه الذكرى الخالدة ، مستكتبة فى ذلك أقلاماً عرفت بالدراية والقوة ، لأنها عصارة أذهان كلها يقين وإيمان ، فنحمد إلى الجمعية جليل عملها ، وبالغ جهادها الاسلامى النبيل .

كتابا : «الفلسفة فى كل العصور» و «فلاسفة الأدهار»
تأليف الأستاذ حنا خباز

المراد بالفلسفة : العلم العام بحقائق الأشياء ، والتدرج من معرفة الكون إلى معرفة ماهيته ، لذلك لا نكون مغالين إذا أهبنا بكل إنسان ، يريد أن تكون ثقافته ثقافة علمية منظمة ، أن يدرس الفلسفة فيما يتصل بشأنه من فروعها ، إن لم يكن فيها جميعاً ، وحسب الفلسفة فخراً أن تتيح للإنسان البحث الحر ، وتهيء له التفكير المنظم والدقة الموفورة .

نقول هذا لمناسبة الكتابين اللذين نحن بصددهما الآن ، ونعنى بهما كتابى « الفلسفة فى كل العصور » أو « ملخص الآراء الفلسفية » ، وكتاب « فلاسفة الأدهار » اللذين ألفهما الصديق الفاضل الأستاذ حنا خباز ، والذى نعرف فيه دقة البحث ، وسعة الاطلاع ، والذكاء المتوقد ، والجلد فى مقارنة الدراسات العميقة ، ويزيدنا تأكيداً فى عقيدتنا تلك هذان الكتابان اللذان جمعهما ملخصين من أقدم الكتب وأشهرها فى تاريخ الفلسفة ، ومن المؤلفات الحديثة مثل : مارفن وروجرس وثلى وغيرهم من أقطاب العالم الغربى فى هذه الموضوعات .

وكانت طريقته التى اتبعها فى ذلك دالة على الأمانة فى النقل ، والدقة فى الترجمة ، والبراعة فى التلخيص ، والتوفيق فى الاختيار ، فهو قد اختار من كل مؤلف من المؤلفات السابقة خلاصة وافية للفكر الفلسفية وتراجم أصحابها الذائعين .

على أن تقديرنا لعمله هذا لا يمنعنا من مخالفتنا له فيما ذهب إليه فى كتابه الثانى «فلاسفة الأدهار» من غمط لحقوق الفيلسوفين العظيمين : ابن سينا وابن رشد ، غمطاً سجله فى تمهيد الكتاب بقوله . اخترت عشرة مفكرين هم زعماء الفلسفة فى كل الأدهار ، ولست أتحمل مسؤلية وضع « ابن سينا » و « ابن رشد » بينهم على أنى لا أدعى أنهما مساويان الأقطاب الثمانية الآخرين .

فمن إذاً من زعماء الفلسفة الاسلامية غير هذين يستطيع الأستاذ أن يساوى بهما الأقطاب الثمانية ؟ أفلا يوجد واحد من زعماء الإسلام يساوى حتى فلاسفة النهضة الأوربية الحديثة وهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا ؟

لو أن المجال يسمح بالإفاضة فى هذا الموضوع لما تأخرنا ولكن عذرنا واضح ، وثبوت حق الفلسفة الإسلامية وفلاسفة الإسلام ، واضح لا يحتاج إلى إفاضة أو تدليل . وحسبنا هذا الآن .

أسرار الكف

ترجمة الأستاذ بيومى زكى

علم دارسة الكف من علوم الأسرار – أو العلوم المستيرية على حد التعبير اليونانى القديم MYSTERIA – التى لم تنل حظها من الاستقرار بعد ، شأنها فى ذلك شأن بقيـة تلك العلوم التى تحتفظ دائماً بصبغة سرية ، وتتصل بالغيبيات غير القابلة للتفسير بالكلمات ، فتعتمد على الرموز والأشكال والخطوط ووسائل أخرى ليس هذا مجال ذكرها .

لذلك كان من العسير دائماً الحكم على قضايا هذا العلم ومقرراته التى لما تستند على حقائق علمية ثابتة يقبلها العقل ، ويقرها المنهج العلمى الحديث . بل لا نبالغ إذا قلنا ، إن مقدار الشك فى صحة هذا العلم ، أكثر جداً من مقدار التسليم بصحته والايمان بمقولاته .

وما يزال العلماء جادين منذ أقدم العصور ، بل من عهد بناء هيكل أبولون فى دلفى ، بل منذ ٥٤ قرناً ، أو من عام ٣٤٦٨ ق . م على التحديد وهو العام الذى وضع فيه «فوهى» الفيلسوف الصينى أول كتاب فى علوم الأسرار ، (وهذا نتيجة بحثنا الخاص ، نقول ما يزال العلماء جادين فى تحقيق مسائل هذا العلم تحقيقاً أدنى إلى الرياضيات المنطقية منه إلى المقررات الغيبية .

والذين يتتبعون المراحل التى يقطعها علماء الغرب فى هذا الشأن يرون عجباً ويزدادون غرابة ، حين يعلمون أن هؤلاء العلماء فى كل يوم بحثاً جديداً وكتاباً جديداً ، فى حين أننا من ذلك كله فى عماء ، أو – على الأصح – فى غيابات من الخرافات ، وأودية من الخزعبلات .

فهناك فى الغرب يتضافر علماء الفسيولوجيا والبسيكولوجيا مع أرباب هذا الفن ، فى تحقيق مسائله ، وشرح غوامضه ، فى حين أننا هنا نعتمد على ما يشبه « مجربات الديربى » ، و«شمس المعارف » ، و « أبى معشر الفلكى » وغيرهم .

لذلك لا نرى بأساً من توجيه المشتغلين بهذا الفن إلى دراسة هذا الكتاب الجديد الذى ألفه العالم « تشيرو » ، وترجمه الأديب الفاضل والباحث المدقق الأستاذ بيومى زكى مدير مكتب وكيل وزارة الداخلية .

فإن الكتاب جمع إلى ما لمؤلفه من صيت عالمى ، وشهرة علمية بعيدة ، ترجمة دقيقة عنى بها الأستاذ المترجم عناية فائقة ، تجلى أثرها فى اختيار الألفاظ ، وانتقاء الكلمات ، والتدقيق فى المعانى ، واستقراء المدلولات استقراءً أقرب ما يكون إلى الصحة ، إن لم تكن الصحة كلها ؛ وعذر المترجم فى ذلك واضح ، فهو يعتمد على الاستنباط والتحليل ، ودقة الفهم ، وذكاء الخاطر .

فإذا كنا نهنىء الأستاذ المترجم على ما بذل من مجهود موفق ، فإنا نهنىء – فى الوقت نفسه –

المشتغلين بهذا العلم ، وفى أولهم المؤلف ذاته ، على ما قدم لهم هذا العالم الشاب من خدمة خالصة لله والعلم .

وحسبنا أخيراً أن نقرر فى صدق ، أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه ، فيما قرأناه من كتب حتى الآن ، فلعل المترجم الفاضل يرى من الجمهور ما يكافىء جهوده المضنية ، ويلقى من العلماء ما يستحق من تقدير ، فينشط فى ترجمة كتاب « علم قراء اليد » وغيره من الكتب التى وعدنا بها ، والتى ننتظرها شغوفين .

أما طبع الكتاب وورقه فبالغ حد الجودة ، بالنسبة إلى غيره من الكتب ، وأما صفحاته فعددها ٢٨٨ ، فأما ثمنه فعشرة قروش ، وهو يطلب من المترجم الفاضل بعنوانه ، أو من مجلة « الصباح » الغراء .

دراسة القانون

تأليف الأستاذين: مصطفى رضا ومحمود أحمد الحفنى

يتخطى المعهد الموسيقى الملكى إلى الكمال بخطوات واسعة جداً ، ولكنها — مع كل هذه السرعة والسعة — لم تفقد توازنها ، ولم تحد عن الوقار ، وقد كلل هذا الحزم الذى أبدته رئاسة هذا المعهد الجليل بالعطف الملكى ، فجاء هذا الرضاء العالى برهاناً واضحاً وآية كبرى على أن الله لا يضيع أجر العاملين .

قدمنا بهذه الكلمة القصيرة لمناسبة هذا الكتاب الأول فى نوعه ، والذى صدر عن ذلك المعهد بعنوان « دراسة القانون » من تأليف الأستاذين الكبيرين مصطفى بك رضا رئيس المعهد والدكتور محمود أحمد الحفنى ، وقد نهج المؤلفان الفاضلان فى مؤلفهما منهجاً لم يسبق له مثيل فى لغتنا العربية ، فأصدرا كتابهما فى معرض علمى عملى معاً ، حتى ليكاد الكتاب من حسن استعراضه يعلمك صناعة العود ، دون حاجة إلى معلم ، فهو فى الجزء العملى موضح بالصور ، كما هو فى الجزء العلمى غاية فى الأسلوب .

وقد مهد المؤلفان لبحثهما بنبذة فى تاريخ هذه الآلة الموسيقية العظيمة (القانون) ، فندا بها الرأى المشهور القائل بأنها من اختراع الفارابى الفيلسوف الشهير . وقد كان بودنا أن يسهبا قليلا فى هذه النقطة التاريخية ، ليبينا لنا : من من العرب إذن هو الذى صنع ما صنعه فى شكل هذه الآلة غير الفارابى ؟ أما إنهم ينشرون الشك حول هذه المسألة التاريخية ثم يتركونها بدون تحقيق فليس فى نظرنا إلا من باب عيوب القادرين الذين عناهم المتنبى بقوله :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

والكتاب كما قلنا آنفاً هو الأول من نوعه ، فهو فاتحة إنشاء مكتبة موسيقية نعتقد أن الثقافة العربية فى أشد أنواع الافتقار إليها الآن.

الرسالة الثانية من الخط الكوفى

بقلم الأستاذ يوسف أحمد

لصديقنا العلامة يوسف أحمد شهرة ذائعة فى الآثار العربية ، لا نظن أن إنساناً عظيماً ـ مصرياً أو أجنبياً ـ زار الآثار العربية إلا وعنده عن الأستاذ يوسف فكرة حسنة ورأى جميل.

والحق أن الأستاذ يوسف خدم الآثار العربية أعظم خدمة ، وعنى بها أكبر عناية، حتى إنه فى العلم بها ليعد حجة فى هذا العصر بلا نزاع. وما نزيد القراء فى ذلك تأكيداً ، فقد شرحناه فى العدد الأسبق عند كلامنا عن الرسالة الأولى .

ويظهر أنه لتلك العناية العظيمة بهذا الفرع من فروع الثقافة التاريخية ، قد تمكن من دراسة الخط الكوفى. فهو من حين لآخر يتحف العلماء والعظماء بمجموعات خطية جميلة من هذا الرسم الكوفى الجميل .

وبين أيدينا الآن هذه المجموعة الثمينة؛ ففيها بحث طيب عن تحسين ذلك الخط وإدخال الشكل والإعجام ، ولا يسعنا التنويه بها أكثر من أن نقول إنها كتبت بقلم يوسف أحمد ، وهو من يعرفه قراء « المعرفة » جميعاً بمقالاته الممتعة فى علم الآثار، وما إليه من خطوط ورسوم.

كواكب فى فلك

بقلم الأستاذ توفيق وهبه

مجموعة شعر وأدب وسياسة بقلم الأستاذ توفيق وهبه، وهو أديب عربى يقيم فى باريس ليراسل جريدتى : « المقطم » و « البصير » ؛ والذين يقرأون هاتين الصحيفتين يعرفون ما لقلم الأستاذ توفيق من توفيق بين الديباجة العربية الناصعة الرصينة والمعانى الاجتماعية المستحدثة فى هذا الزمن .

فحين تقرأ أسلوب الأستاذ يخيل إليك أنك تقرأ ديباجة أديب قضى عمره كله فى كتب العرب ، وحين تنظر فى معانيه لا يسعك إلا أن تظن أنك تقرأ أفكار كاتب أوروبى حديث .

وإذا كان هذا التجديد يحمد لصاحبه ، فإن المحافظة على الرصانة العربية لتحمد أكثر ؛ فنحن نهنىء الأستاذ توفيق بروحه القومية التى لم تستطع باريس أن تنسيه إياها ، كما نهنىء زميلتينا المحترمين : « المقطم » و « البصير » على حسن اختيارهما للأستاذ توفيق .

وكم كنا نود لو أتيحت لنا فرصة تحليل ما فى هذا الكتاب من أغراض ومواضيع لولا ضيق المقام.